حراس الشريعة

مجلة إسلامية شهرية

العدد التاسع - المحرم ١٤٣٥

الآثار الاجتماعية والثقافية لتطور الكتابة والكتاب

هيثم سمير

ماذا حدث للمصريين؟!

محمد فرحات

ذئب يبيت وحده في غرفة عمي

(من مذكرات ماري التي سربها الموت)

محمود توفيق

إطلالة على تيارات نسوية ومرأوية في الغرب

طاهرة عامر



هيئة التحرير

خالد بهاء الدين الأزهري

عمرو بسيوني - محمد عبد الواحد

مدير التحرير

معتز رضا زاهر

تصميم وتنفيذ

شركة **Active** للدعاية الرقمية والإعلان المطبوع

المدونة: http://alhorras.wordpress.com

فيس بوك: facebook.com/AlHorras

تويتـــــــر: twitter.com/ALHorras

البريدالإليكتروني: horras.sh@gmail.com



الحمد لله وحده ..

لا يمكنك أن ترد واقع التجريف الثقافي وضحالة الوعي المنتشرة بين المسلمين اليوم إلى عامل واحد.
الظروف السياسية والاقتصادية، ومناهج التعليم، والأمية التربوية، وخنق الاستبداد للمجتمع ومحاصرته له=كل تلك العوامل وغيرها ساهمت في هذه النتيجة المحزنة والخطيرة في الوقت نفسه.

وساهمت الثورة المصرية والمتغيرات الاجتماعية والسياسية بعدها في زيادة واقع التجريف، وذلك بسبب التداعي المجتمعي تحت وطأة الحروب السياسية التي عاشها الناس خلال العامين الماضيين، خاصة مع انشغال كبرى الحركات الاجتماعية الإسلامية وغير الإسلامية في أتون السياسة الملتهب.

فسيلة المؤمن، الأشياء الصغيرة الفعالة، اجتماع النقط، طلب الفتح بطول الطَرْق، كل تلك المعاني هي ما يفتح للناس أفق الإصلاح رغم ضعف ما بين أيديهم من الإمكانات، وهي في الوقت نفسه ما يقطع عليهم باب العذر؛ إذ لا قعود حينئذ إلا من كسل وعجز.

بين صفحات هذه المجلة ستقابلك مجموعة من الأقلام تكسر الحدود ولا تعرف غير الإسلام رابطة تجتمع عليها؛ لتشترك في هم أساسي واحد هو محور اجتماعهم بقطع النظر عن مواطن اتفاقهم واختلافهم الأخرى؛ إنه هم الثقافة والوعي، وسبل إعادة إخصاب هذه الأرض المجرفة، واستثمار ما فيها من بقايا البذور ومكاثرتها، وتعاهدها بالسهر والري، وقتل ما قد يعرض لها من الآفات التي تريد اغتيالها قبل أن تؤتي أُكُلها.

لم تجتمع هذه النخبة لتحملك على موافقتها الرأي، وإنما لتحرضك على تجويد صناعة الرأي.
لم تجتمع هذه النخبة لتصنع منك نسخة منها بل لعلها لا ترجو شيئًا كرجائها أن تكون نسيج وحدك.
لم تجتمع هذه النخبة لتلقنك أفكارها، وإنما لتقيم لك أمثلة في طرائق إقامة الأفكار؛ لتقيم أنت صروح أفكارك.

الدين والوحي والفقه والوعظ والأدب والسياسة والفلسفة والاجتماع والتاريخ وكل ما له صلة بتجويد صناعة التفكر ستجدونه بين جنبات هذه المجلة، تعاملوا معه على أنه بذور منثورة، وتابعوا معنا ومع غيرنا ومع أنفسكم مثنى وفرادى، وارتقبوا وقت حصاد ثمار أنفسكم بعد هذا البذر الطويل، وآتوا حقه يوم حصاده، واشكروا لله واعبدوه.

وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هيئة التحرير



في ظلال الاستبداد وغيابات الاستعباد

محمد علي يوسف

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: 71]

محاور مفصلية وتطورات تنفيذية، تتجلى من خلالها طريقة تعامل الطغاة ونفسية المستبدين في كل زمان ومكان، يمثلها بوضوح هذا الخطاب الفرعوني وأشباهه مما تمتلئ به آيات القرآن.

فما بين سلطان على الفكرة وتخوين وهواجس المؤامرة، يليها قمع وبطش وترسيخ لثقافة الخوف وصناعة العبرة، تظهر سلوكيات المستبد وتتبدى طريقته ويتجلى مذهبه.

لقد كان انزعاج فرعون في البداية بسبب التفلت من سلطانه على الأفكار, وسيطرته المحكمة على إرادة شعبه، وليس فقط طبيعة هذا الإيمان وفحوى تلك العقيدة التي اعتنقوها أو الأفكار التي تشربوها.

لم تكن المشكلة فقط في نوعية الإيمان وتفاصيله، المهم أن يكون إيمانًا تحت السيطرة، إيمانًا مدجنًا منزوع الإرادة، إيمانًا بالأوامر، وعقيدة بلا عقيدة.

﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ !

القضية المبدئية هنا كانت تكمن في الإذن، في التصريح، في الاختيار بمنأى عن إرادة المستبد، والخروج عن طوعه والاستقلال عن مذهبه ومعتقده، في التحرر من سلطانه وسيطرته حتى على الأفكار والمعتقدات.

إن المستبد يرى لنفسه الحق المطلق في تحديد أفكار الناس، وفي تقييمها، في تقسيمها وتصنيفها، في الحكم عليها وعليهم، وفي ثوابهم وعقابهم، في توزيع صكوك الغفران والوطنية عليهم، وفي تحديد أدوارهم ومهماتهم.

المستبد يرى لنفسه فقط الحق في أن يحكم ويحاكم، ويعطي ويمنع، وينعم ويحرم، ويحل رضوانه على من يوافقه وينافقه، وينزل سخطه على من يخالفه ويرفض أفكاره ويتحرر من سلطان عبوديته.

المستبد لا يعترف بأية مرجعية إلا مرجعيته، ولا يقبل أي رمز إلا نفسه، ولا يتعايش مع متبوع غيره، وهو -إن آجلًا أو عاجلًا- سيسحق كل من يرفع رأسًا، ويقمع كل موطوئي العقب ممن يقتدي الناس بهم ويتبعونهم.

المستبد لا يستطيع العيش إلا مع عبيد يهللون له ويباركون كل خطواته، أما من كان له رأي أو فكر أو إرادة خارج إطار إرادة المستبد وفكره فهو عدو له، متآمر على دولته لابد أن يزاح عن طريقه .

وهنا يأتي دور التشويه والدعاية السوداء: ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾



تناسى المستبد في لحظات أنه هو من أتى بهم من أنحاء القطر الواسع، وجمعهم بجنده واختارهم على عينه، تناسى فجأة طبيعة الأشياء وضعف وسائل خصمه المادية بالمقارنة بآلته الحربية وقدرته الآنية وحضارته القوية؛ فقد تجلت دعاية المؤامرة السوداء لتبرر ما سيحدث بعد قليل للخونة المتآمرين، الذين كانت جريمتهم السجود، وخطيئتهم ترك الاستئذان قبل الإيمان، ونسيانهم الحصول على تصريح بالاعتقاد مختوم بالختم الفرعوني.

﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾

وإذن فقد آن وقت القمع وجاء دور البطش؛ فسبيل الضعيف وإن لبس لأْمتَه ووسيلة العاجز وإن ادعى قوته وتمثل قدرته هي السيف في مواجهة الفكرة، والبطش في مقابلة العقيدة، والعذاب لوأد الإيمان الذي لم يُستأذن فيه المستبد الطاغي.

لكن لماذا؟! هل هو الانتقام وحسب؟! أم هو إسكات الصوت وكبح جماح الإرادة وقتل حركة التحرر الإيماني من عبودية الطواغيت التي مثلها السحرة؟!

ربما كل ذلك وربما غيره، لكن المهم -وربما الأهم- هنا هو المقصد الأخطر والخطوة الحاسمة من خطوات المستبدين لوطء الخارجين عن إرادتهم ووأد حركتهم في مهدها، المهم هنا صناعة العبرة وترسيخ الخوف.

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾

فلابد أن يعلموا ولابد أن يعلم الجميع، لابد أن يبقى العبيد عبيدًا، وليكن هذا العلم عبر جسور الأشلاء الممزقة؛ ليُسقى هذا العلم للعبيد مع عصير الدماء المسكوبة وقيح الأوصال المتطايرة، ثم ليكن الصلب على تلك الجذوع السامقة، وليشهد القاصي والداني قوة المستبد وبأسه؛ فالمسألة ليست فقط في العقوبة لكنه النموذج؛ النموذج الذي ينبغي أن يظهر للجميع وليظل الإيمان المطلوب كما هو، ليظل إيمانًا بتصريح، وعقيدة بإذن المستبد، إيمانًا بلا إرادة، وعقيدة بلا حرية، والناس على دين ملوكهم، ما يُرونهم إلا ما يرون، وما يسمحون لهم إلا بما يرضون.



المستبد هو فقط من يحق له أن يرى، وهو فقط من يسمح لك أن تتبع وأن ترى فقط ما يرى، وهو يحتقر ويزدري ويسخر ويستهزئ بمخالفيه، ويظهر ذلك الاستهجان والتحقير في كلام المستبد عن معارضيه ووصفه لهم بكل نقيصة؛ فهو فقط عند نفسه الأعلى والجميع دونه، وهو فقط الأعز والجميع أذلاء إليه، وهو وحده الحر والجميع عبيد له، وهو وحده الرشيد والجميع همج رعاع لا يرقون لفكره ولا يقتربون من عبقريته.

المستبد يرى نفسه حالة فريدة ليس لها شبيه بين أقرانه، ودور الآخرين في الحياة أن يركعوا له ويثنوا على أفعاله وينفذوا أوامره، والويل كل الويل لمن ناقش أو اعترض أو فكر أو قرر.

والمستبدون ذوو أسلوب متشابه، وللطغاة طبيعة واحدة ورثها فرعون عن النمرود، وشاركهما فيها ملك الأخدود وأصحاب الرس وثمود، وطواغيت عاد قوم هود، توارثوها بغير نسب ولا عصب، وورّثوها لكل مستبد جاء بعدهم، كأنما تواصوا بها؛ بل هم قوم طاغون.

ولا تخفى طبيعة مستبد أو أسلوب طاغية على حصيف متأمل؛ بل تظهر مبكرًا من حروفه وإيماءاته ومواقفه وخياراته؛ لتقرع أجراس إنذار في عقول النبهاء: أن احذروا فثمة مستبد يولد، وقليل من ينتبه.



ولابد للمستبدين من سحرة! سحرة يزينون باطلهم ويحسنون فسادهم وإفسادهم، ويجملون بغيهم ويشرعنون بطشهم، ويسوّقون باطلهم، ويرهبون معارضهم، ويخوفون رافضهم، قد كان لصاحب الأخدود ساحره، الذي طالما خدع الناس بألاعيبه وحيله ليعبدهم لمليكه، وكان لفرعون سحرته الذين طالما جمعهم ليسحروا أعين الناس ويسترهبوهم ولطالما فعلوا وجاءوا بسحر عظيم.

وإن جريمة الساحر قد تكون أحيانًا أشد وطأة من جريمة الطاغية المستبد نفسه؛ ذلك بأن المستبد قد يُطاع خوفًا من سيفه ورهبة من سوطه وانبطاحًا أمام جبروته؛ لكن ذلك كله قد يزول لحظة انهيار حاجز الخوف وتمكن الإيمان من القلوب حتى تعلم أنه لن يصيب أصحابها إلا ما كتب الله لهم، فيرفعون رؤوسهم في وجوه الظالمين ويصدعون بالحق غير خائفين لوم اللائمين وبطش الطاغين وقمع الجبارين وإيذاء المستبدين ما دام في ذات الله رب العالمين؛ لكن الساحر حين يزين البغي ويشرعن العدوان ويجمل الفساد ويسحر أعين الناس ويسترهبهم فإنه بذلك يصنع حالة من اللامبالاة والتنطع والاستسلام الطوعي؛ بل والاقتناع والسعادة وربما الانبهار بصنيع الطواغيت حتى يستمرئوا الذل ويتلذذوا بالهوان، أو يرسخ تعظيمًا لهم ورهبة في نفوس الناس، تجعلهم يفكرون ألف مرة قبل أن يغادروا الحائط الذي تعودوا السير إلى جواره. باختصار الساحر يصنع جيلًا ممسوخًا من المقتنعين بقمع النار والحديد، بل وربما من المطالبين بالمزيد والمزيد والفرحين بأنهم للطواغيت عبيد.

ويتنوع السحر حسب الزمان والمكان؛ فليس كل السحر حبالًا وعصيًّا أو تعاويذ وأعمالًا؛ بل: "إن من البيان لسحرًا". كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولتعرفن أهل ذلك السحر في لحن قولهم وتزيين أكاذيبهم.

وإن الساحر ليتقنع بشتى أنواع الأقنعة، ويتدثر بمختلف الهيئات والأغلفة، التي تخفي زيفه وتستر حقيقته؛ فما بين قناع مثقف، وعباءة نخبوي، وأصباغ غانية، وطلاقة لسان سياسي مفوه، وعمامة شيخ سلطان وإمام ضلالة وبهتان =يتخفى سحرة العصر. فلا تغرنك يومًا أقنعتهم، ولا تخدعنك أستارهم ودثارهم وزيف سمتهم، وانظر دومًا إلى حقيقتهم، حقيقة أنهم يشغلون منصب سحرة الطاغية وسدنة المستبد، وأنهم مهما تقنعوا أو تنخبوا أو تثقفوا أو حتى تعمموا وتسننوا ظاهرًا فإن قولهم وفعلهم ومآل صنعهم يثبت لك دائما أنهم مجرد سحرة.

وغالبًا لا يعترف المستبد على الملأ بأنه مستبد؛ بل ربما ارتدى ثياب المصلح، أو تدثر بدثار الواعظ المشفق، أو تستر برداء المشاور المتقبل لرأي غيره الحريص على مشاركة عبيده القرار، وليس أدل على ذلك التستر وأنه سلوك معتاد من الطغاة مما فعل فرعون إمام الطغاة ونبراس المستبدين، حين تدثر بدثار المشاورين المتقبلين لآراء الآخرين فقال: ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ [غافر: 26] ثم لم يلبث أن ارتدى ثياب الناصحين قائلًا عن موسى: ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ ؛ فالمستبد يحلو له اكتمال المنظر وتمام الزينة، فيبدي من قوله ما يخالفه بعمله، ويظهر من حرفه ما يكذبه فعله؛ لكنه يظل في النهاية مستبدًّا طاغيًا وإن تجمل وتزين، لكنه لإتمام زينة المشورة الصورية، ولإكمال قشرة الموضوعية الزائفة، يجمع حوله من يصلحون لتلك المهمة الرخيصة.

وانظر دائمًا إلى من يجمعهم المستبد حوله، أو يسمح لهم بالبزوغ في دولته والظهور في فلك نظامه وزمرته، تجدهم في غالب الأمر من حمائم الناس سهلي المعشر والانقياد، قد تسبق أسماءهم الألقاب العريضة، وتملأ سيرهم الذاتية الشهادات والدرجات الفخمة؛ لكنهم يشتركون جميعًا في صفات الذلة والانقياد والانبهار الدائم بسيدهم المستبد.

أما صقور الخلق عزيزو النفس مستقلو الرأي، فلا يطيقهم المستبد ولا يستريح في وجودهم، ولا يتعايش مع إيجابيتهم وتأثيرهم، حتى لو كانوا على الفكر والنهج نفسه، فإما أن يهمشهم ويقصيهم، وإما أن يشوههم وبكل بهتان يرميهم أو حتى ينفيهم ويفنيهم؛ فلا يبقى حوله إلا دنيء نفس من أراذل الخلق، يرضى بالهوان ويقبل بالذلة، ويتعايش مع كونه مجرد صدى لأفكار ورغبات سيده المستبد.

لكن مهما أحاط بالمستبد المُزينون، وحُشر حوله فقهاء السلاطين السحَّارون المدلسون، وتكالب عليه المداهنون والمطبلون، الذين هم لفتات الموائد آكلون، ممن يجعلون رزقهم أنهم يُكَذِّبون ويَكذبون ولظلم المستبد هم يشرعنون =فإنه يظل في نفس المستبد وميض معرفة يوقن من خلاله أن كل هذا التطبيل والتزيين والنفاق والتأويل، ما هو إلا قشرة زائفة تحيط بحقيقته القبيحة:﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: 14] هذا الوميض إن لم ينتصر في نفسه ويعيد المستبد إلى رشده، فإنه يظل مصدر عذاب له في الدنيا، وإن أنكر وادعى السعادة والهناء، ولعذاب الآخرة أشق وأخزى.

لكن المستبد في النهاية ينقصه شيء واحد ليكتمل طغيانه ويتم استبداده ويصل إلى منتهى علوه، ينقصه شعب لديه القابلية للاستعباد ويمتلك الاستعداد لقبول الاستبداد، ينقصه العبيد الذين يُستخفُّون ويرضون كل ما سبق ويرضخون له ليعلن نفسه في الوقت المناسب:

إلهًا فوقهم!

تنشئة الأطفال على حب العربية

البشير عصام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فإن كثيرًا من أهل زماننا يشتكون اليوم من غلبة العجمة على ألسنتهم، وقلة تذوقهم للكلام العربي الفصيح؛ مما يجعلهم يقفون عاجزين أمام نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكتب التراث العربي العلمي والأدبي، لا يقدرون على فهمها، أو استخراج كنوزها.

وهم يعزون ذلك لكونهم لم يتلقوا تربية لغوية صحيحة في صغرهم، وأن العامية واللغات الأجنبية أخذت من أوقات تعلمهم أكثر مما أخذت الفصحى.

وهذا صحيح إلى حد بعيد؛ لكنني أرى أن الركب لم يفُتهم بعد، بل لا يمكنه أن يفوت ذا همة عالية، وأرى أنه يمكنهم استدراك النقص في أي وقت، ببذل شيء من الجهد، مع التخطيط المحكم، والعزيمة الراسخة، وقد بينتُ طرفًا من هذا في مقالي السابق الذي بعنوان "والعلم في الكبر .. أيضًا".

نعم.. من الجميل أن يقر الإنسان بغلطه، ومن الجيد أن يعرف أسباب وقوعه فيه؛ ولكن من العجيب حقًّا أن يرى أقرب الناس إليه يعيدون نفس الأخطاء، فلا يأخذ بأيديهم إلى جادة الصواب!

ولذلك لا ينقضي عجبي من هؤلاء الذين يشتكون من الضعف اللغوي، ويعرفون أن سبب ذلك التربية التي أنشئوا عليها، ثم هم يعيدون تكرار التربية نفسها، بالأخطاء ذاتها، مع فلذات أكبادهم!!
ولا شك أن تربية الأولاد أمانة ثقيلة، ومسؤولية عظيمة!

وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: 6]
ولذلك فمن مسؤولية الوالدين أن يحميا طفلهما من كل شر، وأن يحملاه على كل خير، في حدود المستطاع.

وأي شر هو أعظم من أن ينشأ الطفل منبتّ الصلة بلغته، منقطع الربط بثقافته، عاجزًا العجزَ كله عن التعامل مع اللسان العربي الذي هو وعاء هذه الشريعة المطهرة؟

وأي خير هو أجلّ من أن يتذوق الطفل لذائذ العربية منذ نعومة أظافره؛ ويسبح في ملكوت الفصحى يجيل طرْفه في محاسنها، ويمتع مقلته بمرأى عجائبها، ويعتام من عبير زهَرها، وينتقي من أطايب ثمرها؟

وإذا علم هذا - وهو إن شاء الله معلوم - فإنني أرشدك في كلمات معدودات إلى أمور يسيرة، تحرص على تطبيقها مع أولادك، تجعلهم - بإذن الله تعالى - من المحبين للغة القرآن، المتذوقين للطائفها وفرائدها، وتجنبهم الوقوع في حمأة الانبهار الفكري والاستعباد الثقافي، اللذَين ينبعان من التبعية اللغوية لأمم الغرب. والتبعية اللغويةُ أولى دركات التبعية الثقافية والحضارية - كما هو معلوم.

الأمر الأول:



أظهر لأولادك أنك تحب العربية الفصحى، بل تعشقها كما يعشق الخليل محبوبته؛ وأنك تعظم علومها، وتحلها من العلوم الأخرى في واسطة العقد، لتكون لهم في ذلك قدوة صالحة وأسوة حسنة؛ فإن تأثير القدوة يفعل في النفوس من التأثير ما لا تفعله النصائح والتوجيهات.

فإن أعوزك الحب الصادق في شغاف قلبك - لضَرَّةٍ مُفسدة قد استولت على عرش فؤادك فما تركت للعربية موضعًا تكون فيه - فأظهر على لسانك ومحياك وجوارحك خلاف ما تبطن، ولعله أن يكون "نفاقًا" مغفورًا، لعظيم المصلحة المرجوة منه.

الأمر الثاني:

اربط اللغة العربية في نصائحك وتوجيهاتك بالإسلام، وأفهمهم عند أدنى مناسبة أن العربية يجري عليها ما يجري على دين الله من الأحكام، ليتجذر في أذهانهم أنها لغة القرآن الكريم، وأنها لسان الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، وأنها لغة الصحابة الأماثل رضوان الله عليهم.

فليست العربية كغيرها من اللغات، ولا يمكن مقارنتها بسائر الألسن، فإنها اللغة التي اختارها الله عز وجل لكتابه العزيز، وكفى بذلك شرفًا وفخرًا!

الأمر الثالث:

عاتب أولادك على اللحن، ولو كان يسيرًا لا يؤبه له، في عصر الركاكة والعيّ الذي نحن فيه.

وتقويم لحن الأطفال جادة مطروقة، وسبيل لاحب، عليه سار المربون والمؤدبون منذ قرون مديدة، وأثمر ذلك أقوامًا يأنفون من اللحن كما يأنف الواحد من الناس من أثر الجدري في الوجه؛ ويسترون اللحنة الواحدة كما يجتهد الواحد منا في ستر سوأته؛ ويرون إعراب الكلام منقبة، واللحن فيه مسبة!

وقد كان الشيخ الوالد حفظه الله يمارس معنا – ونحن أطفال - دور الرقيب اللغوي، الذي لا يمر عليه لحن دون تعقيب أو تقويم، حتى إنني - إلى الآن - لأتحفظ إن تكلمت بالفصحى أمامه، مخافة الوقوع في بعض اللحن.

الأمر الرابع:

قد يجري على لسان بعض أولادك استهزاءٌ بالنحو، أو استهانة بالصرف، أو تهكم بقواعد غيرهما من علوم العربية، أو بأئمة هذه العلوم القدامى والمحدثين.

فإن وقع ذلك أمامك، فلا تجارهم فيه، بل نبههم بلطف وحكمة على أن هذه العلوم خادمة للقرآن والسنة، ولا يستقيم فهم الوحيين دون معرفتها، واسرد لهم قصة تشييد هذا البنيان الشاهق منذ لبناته الأولى إلى أن اكتمل صرحًا سامقًا، وأخبرهم بالجهود الجبارة التي بذلها علماء الأمة عبر قرون كثيرة، لتأسيس هذه العلوم، وتنميتها وحفظها؛ فكيف يليق أن تجعل عرضة لألسنة العابثين المستهزئين؟

وإن أنسَ فلست أنسى – ما حييت – يوم قال أحدهم أمام الشيخ الوالد بنبرة ضاحكة، وقد سمع شيئًا من تقريراته النحوية: «سيبويه هذا قد مات، ومضى علمه .. ».

فصاح به الوالد بلهجة المحتدّ المغضَب: «بل هذه اللغة العربية يا هذا، لا سيبويه .. وهذه العربية لا قيام لها دون هذه القواعد التي قعدها هؤلاء ..». فانظر إلى أثر ذلك عليّ وأنا صبي، حتى ما نسيت الموقف بعد سنوات عديدة!

الأمر الخامس:

اعرض على أولادك بين الفينة والأخرى جملة صغيرة (آية قرآنية أو جزءًا من آية، أو حديثًا نبويًّا، أو بيتًا شعريًّا، أو مثلًا مشهورًا، أو غير ذلك من فصيح الكلام) واطلب منهم إعرابها، وليكن ذلك ذريعة لمراجعة بعض قواعد النحو والصرف.

وأكثر القواعد رسوخًا في الأذهان ما اقترن بالتمرين والتدريب، وصاحب التطبيق العملي.

وأنا أفعل هذا مع أولادي، المرة بعد المرة، وأرجو لهم به نفعًا وفائدة.

الأمر السادس:

إن لم تستطع أن تكلم أولادك بالفصحى على كل حال، فلا أقل من أن تجنبهم اللهجة العامية في أكثر الأوقات، خاصة في الأشياء المتكررة، التي ترسخ في الأذهان، وتبقى على الألسنة؛ كالأناشيد والأمثال.

وإن من رأيي أن مما يقتل الذوق العربي هذه الأناشيد العامية الموجهة للأطفال؛ فلا تستهن بأثرها عليهم، واحرص على تحفيظهم شعرًا فصيحًا راقيًا، مع مراعاة يسر الألفاظ وسمو المعاني، وفي أشعار العرب القديمة من ذلك الكثير الطيب.

واحرص أيضًا على أن تلقنهم بعض أمثال العرب المشهورة، بدلًا من الأمثال العامية أو الأجنبية، وإنك واجد في (مجمع الأمثال) للميداني، ما يروي غلتك، ويحقق مرادك.



الأمر السابع

ما الذي يمنعك من قراءة قصص عربية تراثية على أطفالك الصغار، بدلًا من هذه القصص المحدثة الركيكة في المبنى والمعنى؟

ومن المرشح في هذا الباب: قصص الأنبياء (بالفصحى مع ربطها بآيات القرآن)، وسيرة الحبيب صلى الله عليه وسلم، وسير الصحابة والتابعين، والأئمة المجتهدين. ثم بعض القصص المنتقاة من كتب الأدب.

ألهمني الله وإياك حب لغة القرآن، وتربية الناشئة على حبها، والتفاني في خدمتها.
والحمد لله رب العالمين.



الآثار الاجتماعية والثقافية لتطور الكتابة والكتاب

هيثم سمير

قديمًا قال الحكماء: الحاجة أم الاختراع.

وقد كانت الحاجة بالفعل هي السبب وراء اختراع الكتابة، ربما لا يتصور الإنسان في العصر الحديث الحاجة الأولية التي دفعت الإنسان منذ مئات السنين إلى اختراع الكتابة، ولا يتصور كيف أن أشكال الكتابة وأنواع الكتب المختلفة الآن من الورقي للإلكتروني -والتي تُعد الآن من المسلّمات- قد أخذت من الإنسان جهودًا طويلة في تطويرها، ترجع إلى مئات بل آلاف السنين، وكيف أن هذه التطورات أثرت وتأثرت بالتطورات الاجتماعية والسياسية عبر تلك القرون.

بدأ الإنسان في تدوين الأعداد أولًا، وكان ذلك -بحسب المؤرخين- منذ حوالي 40 ألف سنة، لجأ حينها الإنسان إلى نقش علامات خطية، على العظام أو الأخشاب أو الأحجار، تعبر عن الأعداد، وكان ذلك لحصر الممتلكات أو الصيد أو غير ذلك مما قد يحتاج الإنسان في تلك العصور إلى تدوينه، ولذا فيبدو أن السبب الأول لاختراع الكتابة كان من أجل الأعمال الإحصائية، ولم يكن اختراع تلك العلامات وما شابهها قصرًا على حضارة معينة بل نشأ في حضارات مختلفة بشكل مستقل.

ظلت هذه العلامات ومثيلاتها هي وسيلة الكتابة الوحيدة المعروفة لدينا، وظلّت مستخدمة لعشرات الآلاف من السنين، تطورت خلالها هيئة العلامات قليلًا، بينما ظل استخدامها كما هو.

ومع تطور الحياة المدنية للإنسان، وتطور المعاملات التجارية والسياسية وتشعبها حتى أصبحت أكثر تعقيدًا، أصبح الإنسان في حاجة إلى طريقة لتدوين بعض الأفكار أيضًا، فضلًا عن الأعداد، وكان أول من ابتكر طريقة لكتابة الأفكار -في التاريخ المعروف بالنسبة لنا- هم السومريون، في فترة تعد قريبة نسبيًّا، في منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد.

كانت الكتابة السومرية (المسمارية) تتم باستخدام أقلام من القصب والخشب، تنقش بها أشكال مثلثة طويلة تشبه المسامير القديمة، على ألواح من الطين. كان كل شكل يعد رمزًا تصويريًّا لشيء أو لمعنى ما، فلم تكن الكتابات الأولى تعبر عن الأصوات أو الحروف، ولذا فهي تسمى بالكتابة التصويرية (pictogram -pictograph)، وبالرغم من أن ذلك النظام لا يعد عمليًّا، فهناك حاجة إلى رمز خاص لكل معنى أو فكرة، إلا أنه كان يعد تطورًا مهمًّا جدًّا في التاريخ الفكري والاقتصادي والسياسي للإنسان استغرق آلاف السنين.



طور السومريون الكتابة في فترة تقرب من 1500 عام، فبدأوا في استخدام الكتابة للتعبير عن مفاهيم عامة غير تجارية أو غير متعلقة بشئون الحكم؛ فسجلوا الأدبيات الأسطورية مثل ملحمة جلجامش، وبعض المعاجم والفهارس، وبعض الكتابات الطبية والرياضية ومختلف معارف ذلك العصر، وبذلك يكون استخدام الكتابة تطور إلى الشكل المستخدم حتى يومنا هذا.



بدأ الصينيون أيضًا في استخدام الكتابة في الألف الثالثة، وتطورت كتاباتهم حتى صارت كتابة إيديوجرافية (Ideographic) ترمز للمعاني، ولم تتطور أكثر من ذلك حتى يومنا هذا، كانت المادة التي استخدمها الصينيون الأوائل للكتابة هي شرائح البامبو الطويلة، ولعل هذا يفسر لماذا يكتبون بشكل عمودي وليس أفقيًّا، ثم لجأوا بعد ذلك إلى ربط شرائح البامبو ببعضها البعض، ويعد ذلك من أول صور الكتاب، كانت شرائط البامبو ثقيلة الحجم وصعبة في النقل والتخزين؛ فأدى ذلك إلى قيام أحد الصينيين باختراع الورق، عن طريق عجينة تعتمد على لحاء الشجر يتم فردها وتجفيفها، فتصبح بذلك مادة مناسبة جدًّا للكتابة.

أما في مصر، فكانوا يكتبون بالهيروغليفية بدءًا من الألف الرابعة قبل الميلاد، وهي إحدى أشكال الكتابة التصويرية المعقدة، واستخدموا أيضًا الرسوم التوضيحية بجانب الكتابة الهيروغليفية، مثل ما في كتاب الموتى، الذي يعد أقدم الكتب المصورة، وكانوا يكتبون على الحجارة وأحيانًا على الأخشاب.

أما أشهر مواد الكتابة في مصر فكانت ورق البردي، وكان يرسم عليه بالحبر عن طريق أقلام خشبية، أما شكل الكتاب المصنوع من البردي فكان على هيئة لفافة طويلة، وقد استمر هذا الشكل للكتاب إلى عصور طويلة بعد ذلك.



كانت الكتابة التصويرية -كما قلنا من قبل- نظامًا معقدًا للغاية، ويحتاج إلى شخص على مستوى خاص من التعليم والتدريب وصاحب ذاكرة قوية، وبالتالي كانت الكتابة والقراءة مقصورين على قلة من المجتمع، وكان تعلمها يتيح للكاتب الترقي الوظيفي والمكانة الاجتماعية.

وظلت الكتابة بشكل كبير حكرًا على نخبة مجتمعية حتى اخترع النظام اللفظي، أو الأبجدي، بمعنى أن الرموز (الحروف) تعبر عن أصوات الألفاظ المستخدمة في الحياة العامة، وبالتالي كان الأمر يتطلب فقط تعلم عدد قليل من الرموز، مما أدى في وقت لاحق إلى انتشار القراءة والكتابة على مستوى أكثر شعبية.

يعتبر الفينيقيون أول من طوروا نظامًا صوتيًا مبسطًا للكتابة، وساعد اهتمامهم بالتجارة في نقل هذه التقنية إلى باقي الشعوب؛ حيث كانوا يعملون في تجارة أوراق البردي، من مصر إلى اليونان عبر مدينة بيبلوس في لبنان الحالية، وطور عنهم اليهود واليونانيون أسلوبهم في الكتابة، ولذلك نجد أن الكتاب باللغة اليونانية يسمى بيبلوس، وهو ما أصبح فيما بعد اسمًا للكتاب المقدس وأخذت عنه كلمة Bible في الإنجليزية.

(كتابة فينيقية)



تعتبر الكتب المقدسة أهم ما كتب في العصور القديمة، وترجع خصوصية تلك الكتب إلى أنه يجب حفظها بشكل دقيق للغاية يحميها من التحريف والتشويه، وكانت تلك المشكلة أو الحاجة سببًا آخر في العديد من الاختراعات المرتبطة بالكتاب وتاريخه، نجد مثلًا أن في الصين -ونظرًا لرموزهم المعقدة جدًّا- كانت أخطاء نساخ الكتب المقدسة كبيرة، وهي ما أدّت مع الزمن إلى حدوث تحريفات وتشويهات للنصوص الأصلية، وهو ما أدى إلى أن قرر الإمبراطور أن يجمع أفضل العلماء والنساخ وأن يقوموا بكتابة نسخة دقيقة بخط واضح وبارز على الحجارة، وأن توضع تلك الحجارة في الأماكن العامة، بحيث يمكن لمن يريد نسخة طبق الأصل أن يقوم بطلاء الحروف البارزة بالحبر، ثم يلصق عليها الورق وبذلك يحصل على نسخته، وتعد تلك أول صيغ الطباعة، وبعد ذلك أصبح ينقش أيضًا على ألواح خشبية تطلى بالحبر ثم توضع فوق الورق ويضغط عليها حتى تنقل الكتابة على الورق.

أما في أوروبا وبعد دخول المسيحية، وانتشارها بين الفئات الشعبية الفقيرة، انتشرت الكتابة على الرقوق الجلدية كبديل أكثر اقتصادية عن لفافات البردي الفاخرة المستوردة من مصر، ومع انتشار الرقوق تحول شكل الكتاب من اللفافة إلى الكراس (Codex) ، وكان لذلك الشكل من الكتاب المصنوع من الرقوق فائدة كبيرة؛ فكانت مادته أكثر صلابة من البرديات، ثم إنه على عكس اللفافات كان يسمح بالكتابة على الجانبين، وكان سهل الاطلاع والتخزين والحمل في اليد، علاوة على أنه يمكن مسحها سواء عن طريق غسلها أو كحتها، وهو ما يسهل عملية تصحيح الأخطاء أو إعادة الاستخدام.



ربما يظن البعض أن اختراع شكل الكراس جعله ينتشر بسرعة كبيرة نظرًا لمزاياه الكثيرة، إلا أن ذلك لم يكن صحيحًا؛ فالنخبة المثقفة التي كانت تمثل أغلبية المتعلمين كانت تفضل لفافات البردي الفاخرة؛ لما كانت تمثله من أرستقراطية، ولم ينتشر الكتاب في شكل الكراس إلا بعد أن أصبحت للمسيحية السلطة في الإمبراطورية الرومانية أي بعد القرن الرابع، ثم انتقلت الطبقية في فترة لاحقة إلى الكراس أيضًا، فأصبحت الأغلفة ترصع بالأحجار الكريمة والذهب والفضة والزخارف، وحتى الصفحات الداخلية كانت تزخرف ويرسم عليها بالألوان.

ظلت صناعة الكتاب محصورة بين لفافات البردي والرقوق، حتى تعلم العرب صناعة الورق من الأسرى الصينيين، ونقلت بعد ذلك إلى أوروبا عبر إسبانيا، لكن صناعة الورق لم تقضِ على صناعة الرقوق بشكل سريع؛ فظلت المنافسة بينهما قرونًا طويلة حتى القرن الثالث عشر؛ حيث أصبح الكثيرون يفضلون الرقوق على الورق نظرًا لمتانتها ومقاومتها للزمن.

لم يتطور حال الكتاب كثيرًا حتى بدأ عصر النهضة، الذي شهد انتشار المدارس والجامعات والمكتبات وكثرة القراء؛ فأصبح الكتاب سلعة رائجة، وأصبح الطلب عليه كبيرًا جدًّا، وواجه المجتمع مشكلة حيث كانت الصحوة العلمية تتطلب قدرة على إنتاج الكتاب بشكل أسرع من النسخ اليدوي؛ فكان أن اخترع جوتنبرج آلة الطباعة الميكانيكية عام1445 ، وكان لذلك الاختراع عامل الحسم في استبدال الرقوق بالورق بشكل نهائي.



(نموذج لمطبعة جوتنبرج)

جدير بالملاحظة أنه بالرغم من قدم استخدام الطباعة باستخدام الألواح الخشبية في الصين، وبالرغم من أن العرب نقلوا صناعة الورق من الصين إلى أوروبا، إلا أنهم لم ينقلوا استخدام الطباعة في النسخ، ويبدو أن ذلك يرجع لأسباب دينية، فقد وقف العرب لفترة كبيرة موقف المتشكك من الطباعة بالألواح الخشبية بالرغم من استخدامهم لها استخدامات محدودة، حتى أنهم وبعد انتشار المطابع صدرت الفتاوي بتحريم طباعة القرآن، ولعل ذلك أحد أهم أسباب تأخر انتشار الطباعة في العالم.

صورة من أول قرآن مطبوع فينيسيا (1537)

ظلت آلة الطباعة التي تعمل بالكبس الميكانيكي ثم بالبخار لاحقًا هي وسيلة الطباعة لقرابة خمسة قرون، بدءًا من القرن الخامس عشر وحتى القرن العشرين؛ فمع التطور التكنولوجي ظهرت المطابع التي تعمل بالكهرباء ثم في نهاية القرن العشرين ظهرت أيضًا المطابع الرقمية.

وكان لكل تطور في تكنولوجيا المطابع أثر في زيادة عدد الورقات والكتب المطبوعة في العالم، وفي تقليل تكلفة الكتاب، وبالتالي في انتشار القراءة والكتابة والمعلومات بشكل كبير ومتسارع جدًّا، وكان له أثر في نشر العلم بين الطبقات الأكثر فقرًا وابتعادًا عن المراكز الثقافية والحضارية.



مع التطور الرقمي في العقود الأخيرة ظهر الكتاب الإلكتروني (e-book)، الذي يمكن قراءته على الكمبيوتر أو أي من أجهزة القارئ الإلكتروني، وهذا التطور يناسب الثورة المعلوماتية بشكل كبير؛ حيث إنه يسهّل التخزين والنقل، ويمكّن من البحث في الكتاب أو في مجموعة من الكتب قد تصل لعشرات الآلاف عن موضوعات محددة، غير أنه يمكن تخزين التعليقات أو أخذ العلامات عليه بشكل أسهل.

وساهم هذا التطور الرقمي لشكل الكتاب في البحث العلمي والتاريخي والاجتماعي وفي مختلف المجالات البحثية، نظرًا لما يقدمه من مميزات هائل.

ونلخص مما سبق إلى أن الكتاب كان وما زال أحد أهم أركان تاريخ الفكر الإنساني، تطورا معًا عبر القرون، تأثر فيها الكتاب أحيانًا، سواء بالمعتقدات الدينية أو الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وأثر فيهم في أحيان أخرى، وإن كان البعض يتوقع انتهاء الكتاب الورقي قريبًا؛ فهذا لا يعني أن الكتاب ودوره في المجتمع سينتهي، هو فقط سيأخذ هيئة جديدة ونقلة نوعية تناسب الإنسان في العصر الحديث.



ذئب يبيت وحده في غرفة عمي

(من مذكرات ماري التي سربها الموت)

محمود توفيق

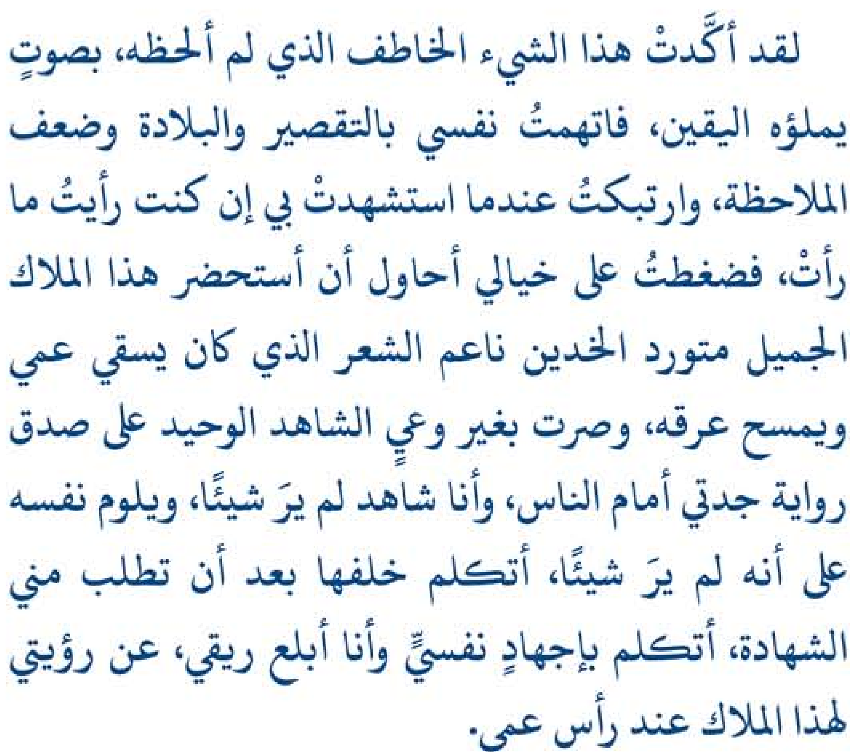
لن أنسى ذلك اليوم الذي توفي فيه عمي زكي في طفولتي، ولا ذلك الاصفرار الكئيب لشمس الخريف التي دخلت غرفته بآشعتها الباهتة.

لقد قُدر لي أن أحضر موقفًا شديد الغرابة، لا زلت أكتم ذكراه في أعماقي، ولم أجرؤ على البوح به لأحد، إلَّا الآن لهذا الدفتر الأزرق الذي أسجن أسراري وخواطري وأشجاني الأرضية بين دفتيه.

وما حدث يوم وفاة عمي كان شيئًا مهولًا فوق قدرة طفولتي على التوقع، وفوق قدرة طفولتي على الاحتمال؛ فجدتي التي خرجت لتأتي لعمي بكوب الماء في هدوء، فور أن طلب الماء بصوت واهن، لم تتوقع أن أخرج وراءها بعد قليل، لأصرخ بأن رأسه ارتمى على المخدة، فأغمضت جدتي عينيها حزينةً حزنًا نبيلًا يليق بموتٍ كان محسومًا.

كنت متلجلجةً تمامًا ومذعورةً ومتقطّعة الأنفاس، لم أكن مذعورةً لوفاته فقط كما ظنَّت جدتي، بل لشيءٍ بدا لي أهم من وفاته وأخطر، لهذه الكلمات الأخيرة التي قالها واختطفتني وزلزلتني وطاردتني من الغرفة للمطبخ، وبينما موته جعل ساقي تلتف بساقي بسبب ما سمعته منه في النزع الأخير، وجدت نفس هذا الموت يهب جدتي حزنًا رصينًا واثقًا.

كانت تقول للمعزين الذين جاءوا، وللمعزين عبر التليفون، وهي تبكي بكاءً وقورًا فيه الكثير من الطمأنينة والحنان، ويخلو من الجزع والرفض، تقول إنها عادت إلى ابنها فرأت عند رأسه ملاكًا جميلًا يسقيه الماء ويمسح عن جبينه العرق المتصبب، ورحل هذا الملاك مبتسمًا فور ما رآنا ندخل الغرفة مسرعتين، قبل أن تلحق بنا بقية العائلة.



لقد أكَّدتْ هذا الشيء الخاطف الذي لم ألحظه، بصوتٍ يملؤه اليقين، فاتهمتُ نفسي بالتقصير والبلادة وضعف الملاحظة، وارتبكتُ عندما استشهدتْ بي إن كنت رأيتُ ما رأتْ، فضغطتُ على خيالي أحاول أن أستحضر هذا الملاك الجميل متورد الخدين ناعم الشعر الذي كان يسقي عمي ويمسح عرقه، وصرت بغير وعيٍ الشاهد الوحيد على صدق رواية جدتي أمام الناس، وأنا شاهد لم يرَ شيئًا، ويلوم نفسه على أنه لم يرَ شيئًا، أتكلم خلفها بعد أن تطلب مني الشهادة، أتكلم بإجهادٍ نفسيٍّ وأنا أبلع ريقي، عن رؤيتي لهذا الملاك عند رأس عمي.

وكنت أشعر بالامتنان دائمًا لأنهم لم يوجِّهوا لي أو لها نظرات الارتياب، بل إني شعرت بالامتنان للمسلمات اللائي جئن للتعزية لنفس السبب، وقد كنت خائفة منهن أكثر، فقد تنبهت منذ صغري لعلاقة الموت بالدين، فهو بوابة إلى الحقيقة المستترة عنَّا من خلفه، والمسلمات يعني لهم موت عمي شيئًا آخر غير ما يعنيه للمسيحيين، والعكس صحيح كذلك، إذا ما ذهب المسيحيون لواجب العزاء في مسلم.

شعرت إذن برغبة في أن لا يتم التلميح لما بعد الموت، التلميح لما بعد الموت اعتداء متبادل، وأنا تقريبًا مولودة بحسٍّ اجتماعيٍّ عالٍ، فمجرد التأكيد من جدتي على أن له الجنة ونعيمها في حضور المسلمات، ربما يعتبر شيئًا مستفزًّا، لذا كنت مضطربة بينما جدتي الهجومية المستسهِلة تحاول أن تستخدم قصة ذلك الملاك للتأثير عليهن عقائديًّا من باب الشفقة، وإن كان في عرضها شيءٌ من المباهاة والفخر والتبكيت المبلل بالدمع (عندنا ملايكة وأنتو لأ)؛ والمشترك بين المعزِّيات المسلمات كان هز الرأس الذي يفيد التأسف على موت عمي، ويفيد التهرُّب والرغبة في أن تغيِّر جدتي حديثها، فيما كانت هي تتنهَّد وتطلب منه أن يصلي لنا أمام عرش النعمة.

ظننت أنه كان في عيني إحداهن ما فسَّرتُه على أنه استخفاف لا إرادي بحديث جدتي يوشك أن يتحول لابتسامة مستهترة، وهذا علَّمني مبكرًا الصعوبة الجدية للتبشير بين المسلمين عن طريق المعجزات والظهورات؛ شعرت بأنني أرغب في الدفاع عن عمي الذي ذهب في الصندوق في الصباح، أدافع عنه أمام هذه النظرات المستهترة، عليها أن تتعاطف مع موته الذي جاء بعد رحلة معاناة مع السرطان، وتنسى الآخرة، وأنا لدي ما يثير تعاطفها، ولكن لا أستطيع قوله، ولا أريد.



هل كانت جدتي تكذب وهي تتكلم عن هذا الشيء الذي قالت عنه إنه كان خاطفًا جدًّا كالبرق؟ لا، بل كان الأمر لا إراديًّا، مثل الذي كنت أتحسس منه في عيني المرأة المسلمة التي لها وجه يبدو ضاحكًا في جميع الأحوال، جدتي فقط امرأة قوية العاطفة والخيال كانت تحت تأثير شعور عميق بالحزن والفقد، فلعلها رأت تحت تأثير ذلك ما تتمنى لابنها الصالح الطيب الودود الذي اختطفه مرض السرطان من بيننا بعد أن أسقط شعر رأسه وشعر رموشه، أما أنا فسمعت من عم زكي قبل موته ما لا يتمنى سماعه مسيحي واحد على وجه الأرض.

نعم، فرغم مرور كل هذه السنين، إلا أن ما سمعته لا زال واضحًا لدرجة عنيدة، فقد نطق بالشهادة التي ينطقها المسلمون! وكان للشهادة وقع مهول على قلبي الصغير. رحل وترك من خلفه ذئب شهادته يبيت في الغرفة وحده، ذئب استأنسه ضعفي، ويصاحبني أحيانًا في التنزه في طرقات الوحدة والتأمل.



لذا فقد كنت طفلة حملت حملًا ثقيلًا، كدت أسقط على وجهي منه في البداية، وكلما نضجت وكبرت، تعوَّدت على هذا الحمل أكثر، حتى صرت كمن لا يرغب في أن يضعه عني أحد، وصرت أرغب في الاحتفاظ بهذه الإيقاع البطيء المستفز الذي كان ينطق به بصوت واضح، وباطمئنان وكأنه لا يوجد حوله أحد من البشر: "أشهد أن لا إلٰه إلَّا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله".

وصرت من ناحية أخرى أستحث جدتي على تذكر الملاك الجميل، وكلما مر بها الوقت، اكتسى وجهها بشيءٍ مما كان على وجهي من الارتباك يوم أن كانت تستشهد بي، انقلبت اللعبة، أخذت تشفو من القدرة الهائلة للصدمة على الإيهام، كأنها بدأت تشك فيما رأت، لكنها كانت مضطرة للاستمرار ولكن بأداء باهت مختصر، كنت أمارس عندئذ شيئًا من التعذيب اللطيف، هل تذكرين الملاك جدتي؟ نعم، نعم.

أما المرأة المسلمة فشاهدتها من بعد ذلك في مناسبات مختلفة، وقد ذهبتُ في إحداها مع أمي وجدتي لمواساتها بعد أن عادت من دفن شقيقها الأكبر بالسويس، هذه امرأة لا تصلح في مجالس العزاء على ميت من المسيحيين أو المسلمين أو حتى الملحدين، لازال على وجهها ملامح الاستخفاف من قصة الملاك!

لقد خرجت من هذه التجربة بأثر بالغ: صرت أقارن بين العقيدة المسيحية والعقيدة الإسلامية، والميول المسيحية والميول الإسلامية، بشكل قهري لا أستطيع التوقف عن ارتكابه، وصرت أرى أن موت عمي يعكس من زاويتين مختلفتين هاتين العقيدتين والميول المرتبطة بأتباعهما، فهي رأت ملاكًا، وأنا سمعت الشهادتين، إذن؛ لنا الصورة ولهم الكلمة، وسيظل هذا للأبد.

هذه الحادثة التي يرقد بطلها تحت قبر يعلوه الصليب على رجاء القيامة، هي التي أصابتني لمدة تقارب الشهر بعدم القدرة على التحكم في البول، وهو شيء كاد يصيب أمي بالجنون، أما أنا فقد دمَّرني خجلًا من نفسي، هذه الحادثة هي التي فتحت باب القلق العقائدي أمامي، وقد كان هذا مبكرًا جدًّا، وفوق السيطرة.

ولذا فأنا ربما لا أشارك كثيرًا من المسيحيين حولي تلك الرغبة في محادثة الملائكة أو تخيُّل الملائكة، أنا في هذا أقرب للمسلمين ومزاجهم غير التصويري، وكلما سمعت عن قصة خارج الكتاب عن تجربة أحدهم في التعامل مع ملاك ما ساعده على الخروج من السيارة عندما انقلبت به في الطريق الصحراوي، أو الإحساس الطاغي لطالبة مسيحية متدينة بحضور ملائكي في غرفتها بالمدينة الجامعية، كلما سمعت رجع بي الزمن للوراء، والتفت ساقي بساقي.

الشيء الذي اكتشفته مبكرًا، وبدون جهد، من بعد فترة العزاء التي شعرت فيها أن جدتي ربما تعزي المسلمات على ما يعانينه من الحرمان من وجود الملائكة في دينهن، هو أنه لا صحة على الإطلاق لعدم توفر الملائكة بالديانة الإسلامية، وأنا أذكر بشكل مشوش تلك النشوة التي شعرت بها في صغري وأنا أشاهد درسًا تلفزيونيًّا دينيًّا يتكلم فيه الشيخ المسلم الذي لا أذكره عن تبشير الملائكة لزكريا بأنه سيُرزق بالنبي يوحنا (يحيى)، إذ بدا لي الأمر وقتها كأنه امتداد لما حاولت جدتي التأكيد عليه من أننا نحن الذين لدينا الملائكة، ونحن فقط الذين تزورهم الملائكة وتبشِّرهم وتسدي لهم الخدمات، ولكن من بعدها بدأت أدرك حقيقة الأمر، عرفت أن اليهود والمسلمين يؤمنون بالملائكة إيمانًا يشابه إيماننا، بل وعرفت أن الديانات الوثنية عرفتْ الملائكة، المجوس، الهندوس، الوثنيون في جزيرة العرب، كلهم عرفوا الملائكة.



لا أدري، ربما من أجل هذا، من أجل مزاحمة الكل لنا في معرفة الملائكة بما فيهم من وثنيين، انصرفت مشاعري في اتجاه آخر بشكل عفوي، تقوّى لديَّ اعتزاز مبكِّر واحتمائي بالروح القدس، كان لدي مشاعر تجاه المسيح، ومشاعر أقل وضوحًا تجاه الآب، أما مشاعري تجاه الروح القدس فأظن أنها جاءت خصمًا من مشاعري تجاه الملائكة، تعلَّقت به، باعتباره انفرادنا، انفرادنا الإنجيلي الذي أشرق مع كرازة المسيح.

واستمر الأمر هكذا سنوات قليلة، إلى أن أخذت صدمة معرفية مزعجة بعض الشيء، عندما علمت أن الروح القدس يبيت في التوراة، يعرفه اليهود من قبلنا، ولم تكن كل الصدمة في أنه بات في التوراة، بل إنها أيضًا في أنهم يمرون عليه جيئة وذهابًا في بياته عندهم بغير أن يثير الدرجة التي يستحقها من الفضول.



الروح القدس ليس إلهًا عند اليهود، ولم يهتموا بشكل كافٍ بتعريفه والتفكير فيه والتحقق من طبيعته إلَّا على سبيل رد الفعل تجاه الإيمان المسيحي بإلوهيته، إنهم يرفضون الفكرة بخمول الواثق ثقة قديمة راسخة من كون الله واحدًا، نظروا إذن ونحن نحيطهم بالصخب، نظروا منزعجين للروح القدس كما ورد في العهد القديم الذي بين يديهم، كمن يفتِّش بغير حماس عن شيء في جيوبه تحت إلحاح الآخرين وهو متأكد من عدم وجوده فيها.

أنا شخصيًا ألتمس العذر لعدم استشعار يهودي واحد تلك الألوهية التي نصفها بأنها (قليلة الوضوح) للروح القدس في العهد القديم طيلة القرون، عبقريًّا كان أو ملهمًا أو موسوسًا، لأنه لا العبقري ولا الملهم ولا الموسوس إن نظر في العهد القديم، سيفسر من تلقاء نفسه (يَرْفَعُ الرَّبُّ وَجْهَهُ عَلَيْكَ وَيَمْنَحُكَ سَلاَمًا). [العدد6 : 26] على أنها تعني (الروح القدس يظهر شركته ويمنحك سلامًا)، فقط المفسِّر المسيحي يستطيع ذلك وأكثر، بمعاونة الروح القدس بالطبع! وكلَّما تثاءب المفسرون وكتبوا ما يشتهون وما يسبب لهم انتعاشًا ورضى، كلما تمطَّى ذئب الشهادة وتمسَّح في ساقي طالبًا مني نزهة صامتة في الخلاء.



إطلالة على تيارات نسوية ومرأوية في الغرب

طاهرة عامر

لمّا ظهرت حركة تحرير المرأة في أواخر القرن التاسع عشر إلى مطلع القرن العشرين في أمريكا وأوروبا وكندا؛ كانت غايتها ترمي إلى التعريف بمعاناة المرأة بوجه عام، على الأصعدة الاجتماعية والثقافية والسياسية، تبعًا للظروف السائدة آنذاك في العالم الغربي.

وعلى مدار 150 عامًا أو أكثر انقسمت هذه الحركة إلى تيارات وأفكار مختلفة يصل التعارض فيما بينها إلى حد إعلان الحرب على الآخر، مثل ما حدث في أواخر السبعينات والثمانينات بين هذه التيارات باسم الحرب الجنسية بين النسويات/الأنثويات Feminist Sex Wars .

أما ما يعرف بالفكر النسوي/الأنثوي Feminism فقد خرج من رحم الحركة العامة لتحرير المرأة الأولى؛ ليُشكِّل فكرًا مستقلًا بذاته وفلسفة تسبح ضد كل المسلمات التي عرفتها البشرية في علاقة الذكر والأنثى وطبيعة المرأة.

ويُقسم الباحثون "الأنثوية" و"النسوية" إلى ثلاث موجات رئيسة: الموجة النسوية الأولى، والموجة النسوية الثانية، والموجة النسوية الثالثة.

وتحت كل موجة من الموجات تندرج تيارات أخرى سنتناول أشكالها في هذا المقال ومقالات قادمة إن شاء الله. وأبرز هذه التيارات؛ النسوية الراديكالية، والنسوية الثقافية، والنسوية اللسانية، والنسوية الليبرالية والمرأوية، والموجة الثالثة، والنسوية المناهضة للإباحية، والنسوية المؤيدة للإباحية.

الموجة النسوية / الأنثوية الأولى هي باكورة موجات تحرير المرأة، يلخصها هذا الوصف للكاتبة الشهيرة فيرجينيا وولف بتصوير واقع النساء: "النساء هن ضحايا لأنفسهن، وضحايا للرجال في آن واحد؛ حيث إنهم يحملن المجتمع على عاتقهن من خلال أداء وظيفة المرآة العاكسة لعالم الرجال".

وكان الهدف الأساس لهذه الموجة -التي عُرِّفت في وقت لاحق باسم الموجة الأولى بعد تعريف الموجة الثانية- أن ترصد النظرة التاريخية في تعامل الرجل مع المرأة. وتميزت هذه الموجة بالاستخدام المكثف للغة الأدبية لتصوير معاناة النساء، وانحصرت مطالبها في المطالبة بحقوق متساوية في المجتمع، ورفع المعاناة عنهن، والمطالبة بحق المرأة في المشاركة السياسية والمجتمعية، ويؤخذ على الموجة الأولى أن مَن أطلقن شرارتها هن النساء البيضاوات والطبقات الراقية.



أما الموجة الثانية فقد شهدت صعودًا من مطلع الستينات إلى أواخر الثمانينات، وتطورت غاياتها عن الموجة الأولى برصد الناشطات فيها لمظاهر التفاوت الجنساني/الجندري في القوانين والثقافة، ومكافحة التمييز على أساس النوع في العالم الغربي؛ حيث بدأ تعامل رموز هذه الموجة خلال هذه الحقبة مع الأنثى على أنها "الآخر".

ومن أبرز رموز الموجة الثانية سيمون دي بيفوار؛ لكن أكبر حدث ساهم في صعود هذه الموجة هو كتاب بتي فريدمان "الصفة الخفية للأنثى Feminine Mystique "؛ حيث عبّرت كتاباتها من واقع كونها ربة منزل وناشطة سياسية، واتسم كتابها بإلقاء اللائمة على النساء اللائي حصرن أنفسهن في دور "ربات المنزل"، والمجتمع الذي ساهم في خلق هذا الدور لهن، وحصر وظيفتهن في خدمة الأسرة التي بدأت تتحلل مجتمعيًا في الغرب. ومن بين أهم منجزات الموجة الثانية إعدادها لقانون الفرص المتكافئة في التوظيف لعام 1972م، وقانون الفرص المتكافئة في العلوم والهندسة لعام 1980م.

بدأت الموجة الثالثة من بداية التسعينات، وهي أبرز الموجات على الإطلاق وأكثرها تطورًا في الفكر النسوي، وأكثرها انقسامًا وتطرفًا، إضافة إلى أنها الموجة التي تحظى بمعارضة عارمة للفكر النسوي.

بدأت الموجة الثالثة في حقبة التسعينات بعد نشوب الحرب الجنسية بين النسويات/الأنثويات إلى آخر الثمانينات، وهي الحرب التي شهدت صراعًا بين جناحيّ الفكر النسوي: الجناح المؤيد للإباحية على الإطلاق، والجناح المناهض لها.

ويشار في هذا الصدد إلى مقالة صدرت في صحيفة التايمز عام 1998م بعنوان: هل مات الفكر النسوي؟ Is feminism Dead، تطرقت هذه المقالة بإيجاز إلى تغير صورة المرأة المناضلة ذات القبعة البيضاء واليافطة البيضاء التي تنادي بحقوقها كما كان في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، إلى صورة مغايرة وأشد سلبية.

وتباعًا لهذه الموجات اندرجت تحتها صور متباينة للنسوية، وسنركز فيما يلي على ثلاثة اتجاهات داخل النسوية، ألا وهي: النسوية الليبرالية، والمرأوية، والنسوية الراديكالية؛ ثم نتناول في مقال قادم بروز تيار النسوية المناهضة للإباحية.

النسوية الليبرالية

رغم أنه من الصعوبة بمكان بعد مطالعة كتب النظريات الموضوعة عن فلسفة النسوية وثقافتها أن تقرأ تعريف النسوية الليبرالية؛ لكن في واقع الحال فإن النسوية الليبرالية هي التعبير الحقيقي عن أكثر مطالب وإنجازات النسوية المعاصرة.

ورغم أن مصطلح "ليبرالي" يشير إلى التقدميين والديمقراطيين، وأن من مطالب الفِكر الليبرالي الممتد منذ 300 عام هو البحث عن حرية "الإنسان" وحقوقه السياسية والاجتماعية -فإن الليبرالية النسوية تُعنى بتخصيص مثل تلك الحقوق كلها إلى "المرأة".

وأبرز ما تنعكس فيه النسوية الليبرالية الكم الذي لا نهاية له من القوانين والتشريعات واللوائح ومشروعات القوانين، التي تُطالب بعدم الاعتداد بعامل النوع في التعليم والتوظيف والعمل والإسكان، وما إلى غير ذلك من المجالات، وتناضل في سبيل هذا.

يُشار إلى أن أهم ما حققته النسوية الليبرالية في الولايات المتحدة هو صياغة مشروع قرار عن الحقوق المتساوية عام 1923م، ينص على عدم مساس أي جهة في الولايات المتحدة بمبدأ الحقوق المتساوية؛ وصاغته أليس بول عام 1923م بالتعاون مع الحزب الوطني للمرأة، وظل هذا النص خاضعًا للنقاش في الكونجرس الأمريكي؛ لكنه خضع للإقرار والتصديق عام 1972م، وكل هذا بفضل ضغوط الموجة الثانية من النسوية.

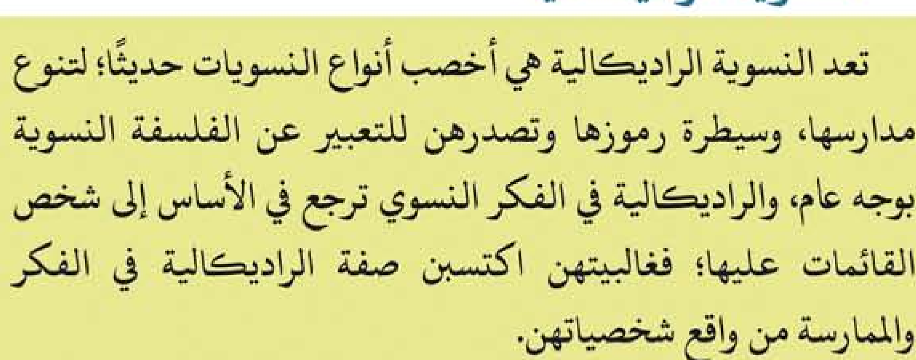
ونجحت النسوية الليبرالية عام 1966م في تأسيس المنظمة الوطنية للمرأة على يد بتي فريدمان، وسعت هذه المنظمة إلى إدخال نصوص تشريعية تطالب بالمشاركة الكاملة للمرأة مساواة بالرجل في الولايات المتحدة الأمريكية.

المرأوية Womanism

رغم أن المرأة الأمريكية السمراء شاركت في باكورة حركة تحرير المرأة الأمريكية، ومن أبرز الرموز سيلستين واير وبولي موراي، إلا أن التنظير والحِراك والنشاط والفعالية في مجال حقوق المرأة والتنظير للفلسفة النسوية كان في الأساس حكرًا على المرأة البيضاء والطبقة العليا والمتوسطة.

وبالتالي في عام 1973م تأسست المنظمة الوطنية للنسوية السمراء للتعبير عن مشاركة النساء السمراوات في التنظير للنسوية، وأبرز الرموز في هذا النشاط بل هوكس Bell Hooks وهي الناشطة الشهيرة السمراء في مجال حقوق المرأة على مستوى العالم، ثم أليس والكر التي صكّت مصطلح المرأوية للتعبير عن النسوية السمراء للناشطات السمراوات حول العالم، وهو الفكر الذي يحمل على عاتقه التعبير عن "محنة" النوع والعرق في آن واحد؛ فينصب نشاطهن على مكافحة التمييز على أساس جنساني وعرقي.

النسوية الراديكالية


تعد النسوية الراديكالية هي أخصب أنواع النسويات حديثًا؛ لتنوع مدارسها، وسيطرة رموزها وتصدرهن للتعبير عن الفلسفة النسوية بوجه عام، والراديكالية في الفكر النسوي ترجع في الأساس إلى شخص القائمات عليها؛ فغالبيتهن اكتسبن صفة الراديكالية في الفكر والممارسة من واقع شخصياتهن.



والنسوية الراديكالية لا تطالب بتقاسم السلطة ومراكز القوة بين الذكر والأنثى؛ بل تطالب بنسف مبدأ القوة من الأساس؛ لأنه نبع تاريخيًّا بسبب الانتماء للنوع! فيطالبن بإعادة تعريف منظومة الأسرة وإعادة قراءة كل المسلمات، ونبذ أي قراءة بطريركية للتاريخ والدين والفلسفة والثقافة، ويرفعن مصطلحات الأسرة النووية، ويطالبن بمراجعة المعاجم والأدب والمصطلحات اللغوية حتى لا تحمل أي دلالات تحيزية للنوع، ومن أطرف ما طالبن به تغيير كلمة History إلى Herstory لأن المقطع الأول من الكلمة يشير إلى ضمير الملكية الذكوري! وعكفت نسويات على إصدار معاجم وقواميس نسوية لتغيير أشهر الكلمات التي تحمل أي دلالة ذكرية.

هذه كانت أبرز محطات جماعات حقوق المرأة والجماعات النسوية بإيجاز؛ لكن توجد تيارات أخرى متعارضة فيما بينها، وسنتناول أحدث هذه التيارات بالتفصيل وهي النسوية المناهضة للإباحية The Anti-porn Feminism في مقال قادم، وهو تيار ناشط وحديث ظهر كردّة فعل على "تسليع المرأة" The objectification of woman في الدعاية والإعلانات في الغرب، وفي صدام مع التيارات النسوية المؤيدة للإباحية، وكل هذه المعارضة ليست نابعة من اعتبارات قيمية أو أخلاقية؛ وإنما ترجع إلى اعتبارات أخرى في العداء مع جنس الذكور، والرغبة في الانتقام من أحد أبواب التسلية لديهم، وهي المجلات والدعاية الإباحية.

ماذا حدث للمصريين؟!

محمد فرحات

هذا السؤال هو عنوان كتاب للدكتور جلال أمين (هو الدكتور: جلال الدين أحمد أمين، عالم اقتصاد وأستاذ أكاديمي وكاتب ومفكر مصري، تخرج في كلية الحقوق جامعة القاهرة عام 1955م، وشغل منصب أستاذ الاقتصاد بكلية الحقوق بجامعة عين شمس والجامعة الأميركية بالقاهرة، كما عمل أستاذًا زائرًا للاقتصاد في جامعة كاليفورنيا. والده هو الكاتب والأديب المعروف أحمد أمين. من مؤلفاته: وصف مصر في نهاية القرن العشرين، عصر الجماهير الغفيرة، خرافة التقدم والتأخر) يرصد فيه التغيرات التي طرأت على المجتمع المصري خلال نصف قرن من الزمان (خلال الفترة من 1945 إلى 1995) في مختلف النواحي الاجتماعية والثقافية وغيرها. [صدرت أول طبعة للكتاب عن دار الهلال، القاهرة: 1998م، وطبعته مكتبة الأسرة الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب: 1999م]

جولة عابرة بين الأسطر

يبدأ الكتاب بعرض بعض المشكلات التي يرصدها المتخصصون في المجالات المختلفة: السياسية والاجتماعية والدينية؛ فهناك تغيرات كبيرة طرأت على المجتمع في هذ الفترة بلا شك، دفعت العلماء إلى طرح العديد من النظريات حول أسباب هذه التغيرات.

فمنهم من يرى أن السبب الرئيس هو الانفتاح الاقتصادي في فترة السبعينيات من القرن الماضي، بينما يرى البعض أن السبب يعود إلى الهجرة للعمل في الدول "النفطية".

بينما يرى الكاتب أن هذه الأسباب تبدو قاصرة لتفسير هذه التغيرات، ويطرح تفسيرًا مبنيًّا على نظرية "الحراك الاجتماعي".

التعريف بالنظرية

يعرف علماء الاجتماع الحراك الاجتماعي (Social Mobility) بأنه: انتقال الأفراد من مركز إلى آخر، ومن طبقة إلى أخرى.

وهو على نوعين:

الحراك الاجتماعي الأفقي (Horizontal Mobility): وهو تحرك الأفراد والجماعات من مركز اجتماعي إلى آخر في نفس الطبقة.

والحراك الاجتماعي الرأسي (Vertical Mobility): وهو انتقال الأفراد من طبقة اجتماعية إلى طبقة اجتماعية أعلى وأرقى. [معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، الدكتور: أحمد زكي بدوي، طبعة مكتبة لبنان، الطبعة الأولى: 1977م]

من خلال هذ النظرية شرع المؤلف في رصد وتحليل بعضٍ من الظواهر الاجتماعية المختلفة.
فمثلًا: يرصد لنا المؤلف ظاهرة اقتناء "السيارة الخاصة"، متعجبًا من السلوك الاجتماعي الغريب في التعامل مع هذه المسألة. [ماذا حدث للمصريين، ص178]

ففي أوائل القرن الماضي كان الاعتماد كليًّا على المواصلات العامة، وكان اقتناء السيارة الخاصة مقصورًا على شريحة صغيرة جدًّا من المجتمع؛ فكان لا يقتنيها في العادة إلا الأثرياء، أو من حالت ظروفه الصحية دون استخدام المواصلات العامة، التي كانت تحظى باحترام كبير.

ومع مرور الأيام ظلت الشوارع كما هي، باستثناء الضواحي الجديدة، وازداد تعداد السكان بشكل كبير؛ فكان من المتوقع زيادة الاعتماد على المواصلات العامة، أو المواصلات الخفيفة؛ كالدراجة أو "الموتوسيكل"، لكن على العكس: زاد الاعتماد على السيارات الخاصة، حتى صار للبيت الواحد سيارة لكل فرد منها، وهذا أدى إلى تفاقم مشكلة التكدس المروري والزحام الخانق.



وبالتدريج تغيرت النظرة الاجتماعية نحو المواصلات العامة، فصارت محل ازدراء واحتقار، وصارت السيارة الخاصة علامة من علامات الوجاهة في المجتمع؛ بل صارت جزءًا محوريًّا في معادلة تقييم الإنسان مجتمعيًّا.

ومن هنا دخلنا في حلقة غبية مفرغة: يزداد الشعور باحتقار المواصلات العامة، فيزداد النفور منها، ويزداد الإهمال لها، ومن ثم يزداد الإقبال على السيارات الخاصة، فيزداد الضغط على الشارع ويزداد الاختناق، وهكذا.

ويبقى السؤال: هل نجح الكاتب بالفعل في تحديد أسباب هذه الظواهر والتغيرات؟

لقد نجح الكاتب بالفعل في إثارة التساؤل، كما نجح في رصد وتتبع بعض الظواهر، لكن في رأيي أن الأطروحة التي قدمها لتفسير تلك الظواهر والتغيرات ليست دقيقة.

قد تساعد نظرية "الحراك الاجتماعي" في تفسير جزء من الظاهرة، أو تفسير آلية إحداث التغيير في السلوك الاجتماعي، لكن أن تكون هي التفسير العلمي المقبول لكل جوانب الظاهرة =فهذا محل نظر.

على سبيل المثال: ظاهرة "ضعف اللغة العربية"[ماذا حدث للمصريين، ص155]، يفسرها المؤلف في ضوء نظرية "الحراك الاجتماعي"؛ حيث يطرح التصور: أن هذا الحراك أدى إلى صعود شرائح من المجتمع من الطبقات الدنيا إلى الطبقات الأعلى.

وهذا أدى بدوره إلى نشأة حالة من عدم الاستقرار الاجتماعي، ووجود حالة من عدم الاطمئنان لدى هذه الشريحة الجديدة، فلقد وقعوا في ورطة اجتماعية كبيرة؛ فهم لم يحققوا ما حققه مَن هم أعلى منهم في السلم الاجتماعي، وفي نفس الوقت يسيطر عليهم هاجس السقوط نحو الطبقات الدنيا التي فروا منها بشق الأنفس؛ فولد هذا رغبة جامحة لإثبات الذات، وتثبيت الوضع الطبقي في المجتمع.

كل هذا دفع تلك الشرائح الجديدة إلى التطلع نحو "التغريب"، ونبذ الانتماء الأصلي للغة العربية، بل والثقافة العربية ككل، كمحاولة لإثبات الرقي والتدليل على الجدارة بهذا الوضع الاجتماعي الجديد.

وهذا الطرح -كما نرى- يصلح كتفسير جزئي للظاهرة، ولكن لا يصلح كنظرية شمولية تجمع أطراف المشهد المتشابكة؛ فهناك بُعد أهم في تحليل وتفسير الظاهرة، وهو البعد الديني؛ فضعف التمسك بالدين، وضعف الثقافة الدينية، وإهمال التعليم الديني، تشكل ملامح هذا العامل الحيوي، الذي يعد بالفعل العامل الرئيس لضعف الاهتمام بلغة الدين، اللغة العربية.

كما أن غلبة التيار "التغريبي" على الثقافة، والتيار "التخريبي" على التعليم، من الأسباب التي لا يستطيع الباحث غض الطرف عنها عند تناول هذه الظاهرة من منظور شمولي.

ومن الظواهر أيضًا التي فسرها الكاتب في ظل نظرية "الحراك الاجتماعي": ظاهرة ما أسماه "التعصب الديني ضد الأقليات" [ماذا حدث للمصريين، ص81] والتي رصد فيها المؤلف حالات العنف تجاه الأقليات الدينية في المجتمع.

وبغض النظر عن صواب التوصيف من عدمه، فالذي يهمني هو مناقشة التفسير الذي قدمه المصنف للظاهرة؛ فنفس التحليل السابق سحبه المؤلف هنا على ظاهرة العنف وغياب التسامح الديني؛ حيث كان الانتقال الطبقي هو السبب في حالة عدم الاستقرار الاجتماعي، الذي دفع بدوره أفراد هذه الشرائح دفعًا نحو إثبات الذات، كل هذا رسخ في أبناء هذه الشرائح الرغبة العارمة في الإحساس بأن لهم "قيمة" في هذا المجتمع؛ فوجدوا هذه "القيمة" في التمسك الشديد بظواهر الدين، مع الاستعلاء على الآخرين بهذه المكانة الدينية، وهذا أدى بدوره إلى غياب ثقافة التسامح، وازدياد النفور من "الآخر"، الذي ترتب عليه هذه الحوادث الطائفية.

و لا يخفى على أي متابع أو محلل أن هذا تبسيط مخل لظاهرة معقدة؛ فهذا التحليل قد يكون صحيحًا في حق مجموعة من الأفراد؛ لكنه لا يرقى إلى مستوى النظرية العامة التي تفسر هذا التغير المجتمعي الخطير.

فليس صحيحًا أبدًا أن التمسك بالدين هو مجرد هروب من واقع اجتماعي، كما يحلو لكثير من أنصار التغريب وأصحاب الاتجاهات المتباينة (الليبرالية واليسارية) أن يفسروا "ظاهرة التدين"!

كما أنه ليس صحيحًا أبدًا أن التمسك بالدين يعني التعصب ضد الآخرين؛ بل العكس هو الصحيح، كما لا يخفى على أي مطلع على تعاليم هذا الدين الحنيف، حتى و لو كان اطلاعه سطحيًّا أو عابرًا، وليس صحيحًا أن غياب التسامح مقصور على طائفة دون طائفة!
و التناول لهذه الظاهرة يحتاج إلى بحث مفصل ليس هذا موضعه.

نحو مزيد من التغير

لقد نجح الكتاب بالفعل في إثارة السؤال: ماذا حدث للمصريين؟!
والظواهر المرصودة غطت حيزًا زمنيًّا طويلًا نسبيًّا؛ لكن مع مرور ما يقرب من عقدين على تلك الفترة محل البحث طرأت على المجتمع تغيرات أكثر، ولعلها أكبر وأخطر من تلك التي رصدها الكتاب.



فحاليًا نستطيع أن نرصد بوضوح ازدياد انكماش مساحة التسامح، وتقبل المخالف، مع ازدياد مضطرد في رقعة التعصب، والرفض للمخالف على طول الخط.

الصراعات السياسية والتماوجات الثورية أفرزت نمطًا جديدًا على السلوك الاجتماعي؛ حيث صارت الاشتباكات الفكرية التي تتطور إلى معارك حقيقية، ظاهرة مألوفة ومبررة تحت غطاء التغير التاريخي الجديد؛ بل وتعدى الأمر مرحلة الاشتباك الفكري إلى الاشتباك البدني، مع استسهال هذه الآلية في التعامل مع الخصم.

هذه الظاهرة هي من أخطر الظواهر التي مرت بالمجتمع على الإطلاق؛ فتحويل المجتمع إلى معسكرات متحفزة هو أول خطوة نحو الاحتراب الداخلي، والتفتيت. ومن آثار ذلك بروز سلوكيات شاذة على النسيج المصري: كالسادية، والعنصرية، وغيرها.

(السادية: نسبة إلى المركيز "دي ساد" (Marquis de Sade) الذي كتب في القرن الثامن عشر عن المتعة الجنسية عن طريق إيلام الآخر، ولم تعد السادية مقصورة في الطب النفسي على مجرد الانحراف الجنسي، بل صارت تعبر عن انحراف نفسي لدي الشخص الذي يشعر باللذة مع آلام الآخرين. [معجم مصطلحات الطب النفسي ص166، طبعة مركز تعريب العلوم الصحية،بتصرف]

والعنصرية (أو العرقية): هي الاعتقاد بأن العرق هو العامل الأكثر فعالية في تكوين السمات والمواهب البشرية، وأن الفروق العرقية تولد امتيازًا فطريًّا عند عرق بعينه. وأعني به هنا: تقسيم المجتمع على أساس الانتماء الفكري أو الأيديولجي أو السياسي، والتفاضل بناء على هذه التقسيمات. [الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية: د/ إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي])

أضف إلى هذا: الانفتاح المجتمعي الرهيب كنتيجة لدخول عصر العولمة الثقافية، من خلال أدوات الاتصال الحديثة؛ كالهاتف المحمول، والشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، والفضائيات، وما أعقبه من انفلات مجتمعي خطير، في السلوكيات والأخلاق.

وبالطبع تمثل التغيرات السياسية والاقتصادية العالمية المستجدة عاملًا لا يستهان به في التأثير المجتمعي.

كل هذه العوامل وغيرها أفرزت سلوكيات وتغيرات جديدة وخطيرة جديرة بالبحث والمتابعة، وتحتاج إلى تضافر الجهود البحثية على مختلف المستويات: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية؛ لرصد وتحليل هذه التغيرات الخطيرة، كخطوة تشخيصية تعقبها الخطوات الإصلاحية المطلوبة.



زماننا وأهله لا يستحقون

يسرا جلال

- هاهو!

- الخليفة؟!

- الخليفة!

- ارفعني قليلًا لأرى.

- رأيته؟

- رأيناه جميعًا من قبل.

- ألم يكن هو ولي العهد؟

- أين عبد الله؟ أما يزال في مصلى العيد؟

- لا، لقد اندس وسط الجموع مستغلًا صغر حجمه، قد يكون في الصفوف الأمامية.

- قالت لي أمي إنه كان ولي العهد، وكانوا يدعون له على المنابر حين كان عمره خمسة عشر عامًا.

- ثم؟

- ثم عزله أبوه عن ولاية العهد وقرب أخاه الأصغر عليًّا، لكن قدر الله سبق ومات علي، فعاد محمد مكانه في ولاية العرش.

-محمد مثلي؟ هل هذا اسم الخليفة إذن؟

- نعم، لكنه سمى نفسه الظاهر بأمر الله.

- اللَّهُمَّ اجعله ظاهرًا بأمرك! ماذا جنينا من العناوين الرنانة؟! قال أبي إن الناصر الذي توفي بالأمس لم يكن ناصرًا لدين الله!

- اصمت! احفظ لسانك!

- غفر الله له، وهل ذكرته بما ليس فيه؟ لقد كان فاسدًا وما كان ناصرًا لدين الله! أوينصر دين الله برحلات الصيد واللعب وفرض المكوس والضرائب؟!

ما دخل التتر بلاد المسلمين إلا في خلافته، هاهي بلاد بُخارى وسمرقند وفارس ومرو وخوارزم في أيدي التتار، وما أغنى هو عن المسلمين شيئًا، ولم يفق من سباته إلا حين اقترب التتر بجحافلهم من أربيل خوفًا على بغداد، وكأن أرض الخلافة بغداد وحدها، يومها استنفر الناصر المسلمين لملاقاة التتار، أتدري كم كان عدد الجيش يومها؟ ثمانمائة مجاهد! الناس يا محمد على دين ملوكهم!



ما قيمة أن يُخفض الناس أصواتهم هيبةً وإجلالًا حين يذكر اسمه، وهو لا يستطيع حمايتهم؟! هذه الدولة مترامية الأطراف التي تحكم العالم منذ خمسمائة عام لم تبث في أبنائها روح الجهاد، أين جيشها القوي؟ أين أهل الجهاد؟ هل هؤلاء أحفاد علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد؟ أين الدفاع عن أرض الإسلام؟!

أخشى أن يكون ما نحن فيه هو الوهن الذي ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم؟ الكل الآن يحب الدنيا ويكره الموت حتى لو كان موتًا في سبيل الله!

المضحك أن المغول حين رأوا صغر عدد جيش المسلمين انسحبوا، ظنوا الثمانمائة هم مقدمة الجيش، لم يصدقوا أن دولة كدولة الخلافة يدافع عنها ثمانمائة جندي فانسحبوا!

- أوينسحب التتار ويفرون؟

- بل ويُهزمون ويُقتلون، ولكنه خَورٌ فينا لا سطوة منهم، التتر يا محمد أضعف مما نظن، ما جرأهم علينا سوى ضعفنا وهواننا على الناس، لا أدري كيف يهنأ المسلمون بمطعم ومشرب وإخوانهم يقتلون ويذبحون؟ لماذا لا نتحرك لقتال التتر؟ لماذا لا نغزوهم قبل أن يغزونا؟

- ولكن الناصر..

- غفر الله له! كان بمقدوره كخليفة للمسلمين توحيد كلمة جيوش الإسلام على قتال التتار، بدلًا من إشعال الفتن بين ملوك المسلمين، طالما أشعل الناصر الفتنة بين ملوك المسلمين، وتركهم يقتل بعضهم بعضًا، والناس حيارى لا يدرون من أين تأتيهم الهلكة، أمِن التتر أم المسلمين؟

- لكنه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم! احفظ مقام رسول الله!

- أويستعين الحاكم المسلم ابن عم رسول الله بالتتر على المسلمين؟ يحصن نفسه في بغداد خوفًا من جلال الدين ابن خوارزم شاه، ويطلب من التتار حمايته من إخوانه المسلمين؟! أما علم أن التتار سيقضون عليه فور انتهائهم من جلال الدين؟ يخشى على نفسه وملكه الوقوع تحت سيطرة جلال الدين ويأمن التتار؟! لمَ لمْ يحفظ هو مقام رسول الله في المسلمين؟! يا محمد! ما أظن الجراد الذي أهلك الغلات بديار بكر والشام والجفاف وقلة الأقوات إلا عقابًا سلطه الله علينا! ﴿ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

- فلتصمتوا قليلًا لنسمع!

- أوتمت البيعة؟

- لا.. ليس بعد.

***

وغير بعيد.. بدا الخليفة في ثياب بيض، وعلى كتفه بردة النبي صلى الله عليه وسلم في شباك القبة التي بالتاج والناس يبايعونه:

"أبايع سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطّاعة على جميع الأنام، أبا نصر محمدًا الظاهر بأمر الله، على كتاب الله، وسنة نبيه، واجتهاد أمير المؤمنين، وأن لا خليفة سواه".

وسرعان ما استدعى الخليفة وزيره وأمره برفع المكوس والضرائب؛ فالجنة لا يدخلها صاحب مكس، كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.

- ولكن يا مولاي..

- "خير البر عاجله، أسقط المكوس، أسقطها طلبًا للبركة وسعة الرزق؛ فالقحط شديد، وما جفت السماء إلا بذنوبنا.

لقد زاد والدي غفر الله له خراج بعقوبة من عشرة الآف دينار حتى صارت ثمانين ألفًا. هل أغنت عنا تلك الزيادة من شيء؟ والله ما أغنت ولن تغنينا غدًا من عذاب الله.

انظر إلى أبناء المسلمين وقد فشا فيهم الغش والخداع لأجل المال، الكل يسرق والحق ضائع، والناس على دين ملوكهم.

وكل هذا في رقبتي أمام الله، ماذا سأقول لربي غدًا؟ ساعدني في رفع الظلم عن المسلمين حتى يرفعوا هم الظلم عن بعضهم البعض، ويقيموا العدل فيما بينهم".

***

-عفوًا يا خال! عفوًا.

- يا عبدالله مد ذراعيك قليلًا للأمام حين ترمي حصاة في النهر، وإلا سقطت الحصاة على الصيادين.

- لا بأس يا بني، إنه مازال صغيرًا، ولكن احترس يا صغيري في المرة القادمة.

أتعلم يا فتى، منذ ولي أمرنا الخليفة (الظاهر) ودجلة يجود بخير كثير، بارك الله فيه وأطال في الخير عمره.

- إنها بركة العدل وثمرة تقوى الله يا خال، هل اشتريت ما طلبته منك أمي؟

- نعم، وبقى معي ثلاثة دنانير، أرأيت؟ انخفضت أسعار السلع منذ أعاد الخليفة الحقوق إلى أصحابها وألغى المكوس، صدقًا، لقد أعاد سنة العُمَرين.

- أسمعت ما فعل بصنجة الذهب؟

- نعم، تلك التي كانوا يقبضون بها المال زمن الناصر كانت تزيد على صنجة البلد نصف قيراط.

- يا الله! وهل كان أبوه يطفف في الميزان؟

- يطفف؟ لم أفهم.

- أي أنه كان يستخدم صنجتين للميزان تختلف إحداهما عن الأخرى. فهمت يا عبد الله؟

- نعم، مثل بائع التمر القصير الذي يضع الحصا بدل التمر.

- هداه الله، قد يحتاج المسلمون وقتًا طويلًا حتى يتوقفوا عن الغش الذي اعتادوه أيام الناصر.

- لحظة.. وماذا فعل الظاهر بأمر الله بتلك الصنجة؟

- سمعت أنه كتب إلى خازنه: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَـٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، قد بلغنا أن الأمر كذا وكذا، فتعاد صنجة المخزن إلى الصنجة التي يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى".

- جزاه الله عنا وعن المسلمين خيرًا، الطامة الكبرى في أغنياء المسلمين الذين اعتادوا كنز المال؛ بل وإنفاقه على القين والجواري.

- والخمر.

- فليتعلموا من خليفتهم الذي قال لخازنه: "ما عملت الخزائن لتملأ؛ بل لتفرغ وتنفق في سبيل الله، إن الجمع شغل التجار".

- صائم؟

- الحمد لله.

- إذن سأراك غدًا؟

- لا أدري، يوم النحر يوم طويل مزدحم، قد نلتقي بعد الصلاة، ألا تفطر معي اليوم؟

***

وأمام قصر الخلافة احتفل المسلمون بعيد النحر مع خليفتهم، الذي تصدق ليلة النحر مائة ألف دينار.

- هذا كثير يا مولاي! أخشى أن يعتاد الناس هذا.

- "فليعتادوا أيها الخازن، أنا فتحت الدكان بعد العصر، فاتركوني أفعل الخير؛ فكم بقي لأعيش؟".

- بارك الله في عمرك ومتع المسلمين بعدلك.

مع الأسف.. صدق حدس الخليفة في نفسه، توفي الخليفة الظاهر بأمر الله سريعًا، ولم يحكم المسلمين إلا تسعة أشهر وبضعة أيام فقط، تسعة أشهر زال فيها القحط وعمت الخيرات، تسعة أشهر من الخير والبركة وسعة الرزق، تسعة أشهر كانت كفيلة بأن يقول المسلمون عن الظاهر بأمرالله: لم يحكم المسلمين بعد العمرين سواه.

وصدق فيه قول ابن الأثير: "إني أخاف أن تقصر مدة خلافته؛ لأن زماننا وأهله لا يستحقون خلافته".



حكاية خبر ليس عابرًا أبدًا

لمياء ماير

حين قرأت ذلك الخبر، كان عليّ أن أقوم فأغسل وجهي بالماء، ثم أعود فأقرأ الخبر مجددًا:

"الإفراج عن 130 سيدة سورية من معتقلات الأسد مقابل ١١ أسيرًا لبنانيًّا".

راجعت صفحات الأخبار لأرى الصياغة مرة أخرى، فوجدت نفس الكلمات في نفس المواضع، نظام البلد الحاكم يفرج عن مائة وثلاثين من مواطنيها مقابل مواطني دولة أخرى، أي أن النظام الحاكم في البلد يتخذ من أهلها رهائن تتم مقايضتهم بمواطنين من بلد آخر!

خبر كهذا مقصوص ومجمع مع عدة أخبار أخرى ذات صبغة مشتركة، كذلك الخبر الذي يأتيك عن غرق قارب كان يحمل مواطنين سوريين قبالة الشواطئ المصرية، فيقضي معظم راكبيه، ومن نجا يتم اعتقاله في مصر، خبر ثالث عن هجرة عائلات كاملة من كازاخستان للجهاد في سوريا، وغير ذلك.

أخبار كهذه تدفعك للتساؤل الملح عن أبجديات في الوعي لم تلقَ حقها من الإقرار يومًا، عن معنى الانتماء، وعن حدوده، تلك المعاني الكثيرة الكثيفة، والتي تهدد بأن تضعك حتمًا ذات يوم في موقف اختيار بين حياتك وحياة آخرين، بين موتك على حال وحال أخرى مغايرة تمامًا.

الانتماء له تعريفات كثيرة؛ فهو يعرف لغة بأنه الانتساب؛ فانتماء الولد إلى أبيه انتسابه إليه واعتزازه به، والإنسان يرتبط منذ وجوده بشيئين، هما المكان والزمان، أي أن انتماء الإنسان للمكان الذي وُجد فيه أمر طبيعي.

ويعرف الانتماء أيضًا بأنه: "النزعة التي تدفع الفرد للدخول في إطار اجتماعي فكري معين، بما يقتضيه هذا من التزام بمعايير وقواعد هذا الإطار، وبنصرته والدفاع عنه في مقابل غيره من الأطر الاجتماعية والفكرية".

في بلدان كالصين وكوريا يعتبرون أن انتماءهم الأول هو للأسلاف، أي أجدادهم الذين مضوا وصاروا ترابًا لا يملكون من أمرهم عدلًا و لا صرفًا، يقابل ذلك في بلد مثل الولايات المتحدة انتماء من نوع آخر وهو السائد، الانتماء للذات، الانتماء هنا لقيمة يطلقون عليها اسمًا لامعًا، وهو: "الحرية".



أما في مصر، فينتمي البعض لرقعة الأرض، الحد الذي يجعله يتفاخر بكل ما كان فوقها يومًا، حتى لو كان هذا بعض آثار قوم رحلوا منذ آلاف السنين، فيستدعونهم من الأحافير والآثار، ويبالغون في الانتماء لسيرهم، فقط لأنهم وُجدوا فوق هذه القطعة من الأرض يومًا ما.

ويتكرر الأمر في دول عربية كثيرة؛ ففي اليمن يستدعون من معاني الانتماء لرقعة الأرض المفاخرة بحضارات؛ كالسبأية والمعينية! وبلدان كالعراق وسوريا يتنازعها الانتماء لحضارات قديمة قد مرت عليها وتركت آثارًا مختلفة في كل قطعة؛ كالسومرية والفينيقية والبابلية الآشورية، وسكان كل قطعة من نفس الإقليم يستدعون معاني الانتماء للقوم الذين عاشوا فيها من آلاف السنين!



وحين تسمع من أهل مصر، ستجد أن الفراعنة هم أسياد العالمين، وأن كل مصري فوق هذه الرقعة هو حفيدهم القوي المنيع المنتصر دومًا الذي لا يهزم... إلخ.

ولو ذهبت إلى العراق مرورًا بسوريا، لوجدت أهل البلد هنا وهناك يفاخرون بالعراقي/السوري الباسل المنتصر حفيد المنتصرين الذي لا يهزم... إلخ.

بل ربما تقزمت الانتماءات أكثر وأكثر، حتى لترى أهل حمص يتفاخرون بالانتماء إليها على أهل حلب، وأهل حلب يتفاخرون على أهل دمشق وهكذا. نوع آخر من الانتماءات منتشر، وهو الانتماء للقبيلة التي ولد فيها المرء وشب طوله، أو للطائفة التي انتمى إليها، أو للجماعة التي التحق بها.

ولكن ما هي أهمية الانتماء بأية حال؟ الجواب: أنه حيث لا يوجد انتماء فثمة خيار وحيد مؤلم وهو الاغتراب، والذي يمكن تعريفه بـ"الابتعاد النفسي للفرد عن ذاته وعن جماعته، وسواء ابتعد الفرد عن جماعته أو غادرها إلى جماعة أخرى، فهو في كلتا الحالتين إنما يفقد انتماءه لجماعته من جانب، ويواجه برفض الجماعة الأخرى له من جانب آخر؛ لاختلاف عاداته وقيمه ونمط شخصيته وخبراته، مما يسبب غربته من ناحية وعدم انتمائه لمجتمعه من ناحية أخرى".

إذا افترضنا أن هناك رجلًا ما من بلد ما أو قبيلة ما قابل امرأة أخرى من بلد آخر أو قبيلة أخرى، وأنجبا نسلًا مهجنًا من بلدين وربما عرقين منفصلين؛ فكيف يكون انتماء أفراد هذا الهجين؟

هنا يثور سؤال الأسئلة: **هل الانتماء فطري أم مكتسب؟ هل يمكن أن أحدد انتمائي وأختاره؟** والإجابة: أن الانتماء منه ما هو فطري مرتبط بمكانك وزمانك، ومنه ما يمكن أن تختاره أنت لنفسك، كذلك أنت من يتحكم في حدود الانتماء وعمقه في نفسك وحياتك؛ فقد تتعدد انتماءاتك وأنت من يقوم بترتيبها ورفع ما يستحق لمرتبة الانتماء التام الأول.

فهل تختار أن تنتمي لقطعة من الأرض هي أشبار معدودة؟ هي في النهاية لا شيء سوى حفنة من التراب؟ أم هل تنتمي لأشخاص ماتوا من آلاف سنين ولا شيء يزيد فيهم عنك سوى الموت والبلى؟ أم تنتمي لمجموعة أشخاص فانين قائمين في مسمى دولة أو قبيلة أو جماعة، ويبقى انتماؤك رهن رضائهم عنك أو سخطهم عليك، فإذا رضوا عنك منحوك الانتماء و إذا سخطوا عليك سلبوك إياه؟

إن أنقى حالات الانتماء وأرقاها وأقواها هي الانتماء الفكري، والذي يتجاوز بمضمونه كل الحالات الأخرى، والتواصل على هذا الأساس له جذوره وقوته أكثر بكثير من حالات الانتماء الأخرى؛ ولكن أي فكرة تلك التي تختار أن تنتمي لها؟



على صعيد الأفكار هناك أفكار بشرية كثيرة تملأ الكون، وهناك فكرة إلهية واحدة ممتدة؛ فهل تختار أن تنتمي لفكرة وضعها شخص آخر ولد ومات قبل أن ترى أنت النور؟ أم تختار أن تنتمي لفكرة عابرة للأزمان والأماكن، فكرة أعلامها هم خير الناس وأزكاهم خلال العصور، الفكرة الأولى للكون والفكرة الأساس التي انبنى عليها؟ إنها الإسلام!

بقليل من التفكير فيما سبق، نخلص إلى أن الانتماء للإسلام دين الأنبياء، وللرسالة الخاتمة التي صدقت بها الرسالات السابقة ولم تلحق بها أي رسالات، بلا شك هو أفضل أنواع الانتماء لأفضل أنواع الأفكار حصرًا. المسلم انتماؤه الأول للإسلام، انتماؤه عابر لأشبار الأرض وعصبيات القبليات وسيادات الدول.

"الإسلام يفرض على العاملين به -وهم طلائع الحركة الإسلامية العالمية الأصلية- أن يخرجوا من إطار التفكير والتخطيط والتنظيم الإقليمي، ليبعدوا بالطاقات الإسلامية عن دوامة التآكل والاستنزاف المحلي والجانبي، ليواجهوا بها قضاياهم الكبرى الأساسية، ليحققوا الغاية الأساسية من وجودهم: لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى". الأستاذ يحي يكن.

الانتماء هو شعور بالترابط وشعور بالتكامل مع المحيط، الانتماء أساس الاستقرار وهذا ما يحققه الانتماء للإسلام في أعلى صورة. والانتماء للإسلام ينسف احتمالية الشعور بالاغتراب تمامًا؛ فللمرء في كل مكان جماعة تضمه وتتوافق معه ويستنفذ فيها طاقته.



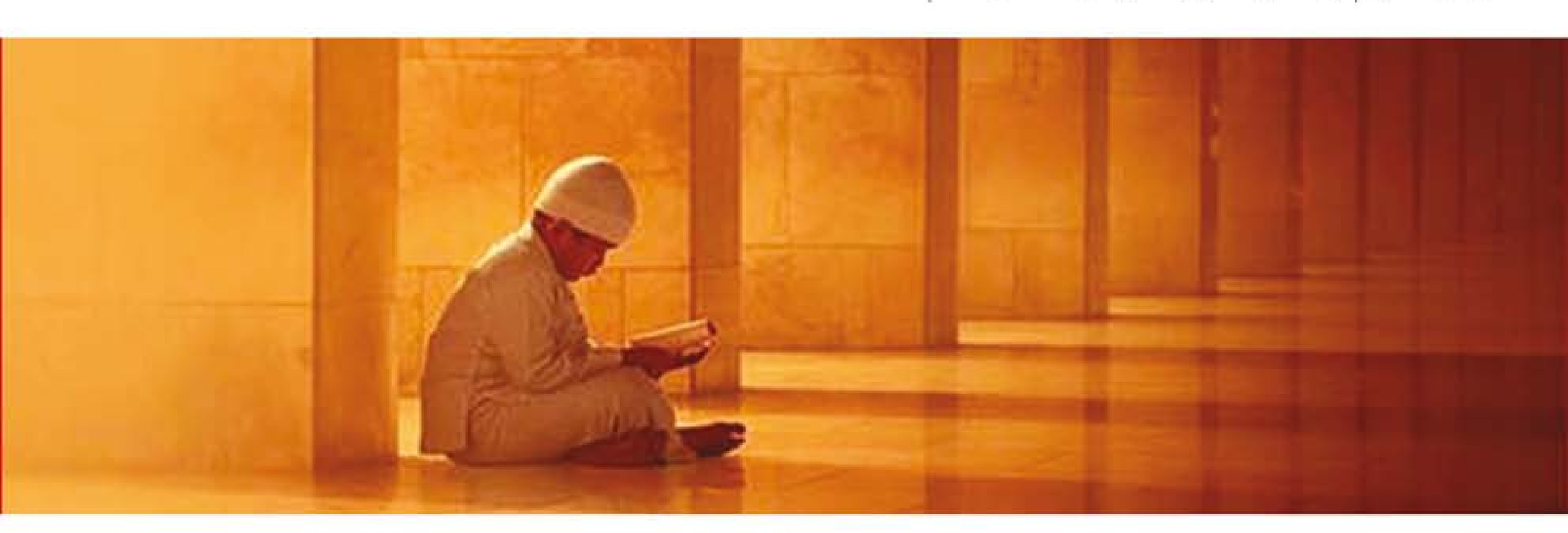
العالم مليء بالانتماءات التي تتصارع ويهلك في سبيلها الملايين، وكلما قوي انتماؤك وتعمق في المدى الزماني واتسع في المدى المكاني كانت احتمالات حمايتك أكبر، وإن انتماءك للإسلام يضمن لك احتمالات الحماية، فأخوك يحمي ظهرك ويدفع عن بيتك وأنت كذلك ويبقى كلاكما محميًّا.

الانتماء للإسلام معناه أن تخدم أفضل فكرة في الكون، وتموت من أجلها مرتاحًا لأنك تركت لمن يخلفك تراثًا يرفعه ويدفعه للاستمرار والبناء، لا أثرًا باليًا يتغنى به ولا يضيف عليه!

الانتماء للإسلام يحفظك من أن تموت من أجل حفنة من التراب والطين، من أن تكدح وتتعب ثم تموت من أجل أشخاص فانين مثلهم مثلك.

الانتماء للإسلام يعني إمكانية هائلة لأن تقيم في كل بلد حضارة، وفي كل زمن حضارة، فهو ليس حضارة خاصة بقوم اندثرت مع موتهم، بل فكرة عالمية إنسانية ترفع المرء وتزكيه، وتباركه حيث كان وأينما كان.

الانتماء للإسلام يضم في رحابته الواسعة انتماءك لوطنك وعشيرتك وأسرتك وجماعتك؛ لكنه يعلو فوقهم، يعترف بهم ولكن يحررك من أن تستعبد لهم.



وبالعودة لأخبار بداية المقال فإن الانتماء الحقيقي للإسلام، الانتماء الذي لا يعرف الحدود والفواصل من تراب أو لغة أو عرق، هذا الانتماء الحقيقي ليس فيه أن تسمع أبدًا أخبارًا كهذه التي رخصت فيها قيمة الروح والدين والعرض، وعلت قيمة حدود مصطنعة بائسة وضعها محتل حاز الأرض سرقة ردحًا من الزمن.

إن مثل هذه الأخبار والأحداث والأهوال إنما هي ميراث الجاهلية التي أغرقت أرض المسلمين، إنها بعض آثار ضياع الانتماء الحقيقي والأول للمسلم.